المتحف الفلسطيني
the palestinian museum
جمعية غير حكومية Non-Governmental Association

٠٣٨٢.٠٣.٠٠٠١

عبرة فلسطين"، موسى العلمي، ١٩٤٩"

عبرة فلسطين" من "وثيقة مطبوعة باللغة العربية من ٩٨ صفحة، وهي كتاب
نيسان ١٩٤٩ عن دار تأليف موسى العلمي، صدرت الطبعة الثانية بتاريخ ٩
يتناول الكتاب الكشّاف للنشر والطباعة والتوزيع في بيروت-لبنان،
التي وقع بها نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ كيف وقعت، وما هي الأخطاء
إلى هذه الكارثة، من الفلسطينيون والعرب، وما هي مواطن الضعف التي أدت
ضعف في الاستعداد وعدم توفر السلاح وغيرها.

موسى العلمي

عِبْرَةُ فلسطين

الطبعة الثانية

١٩٤٩

موسى العلمي

عِبْرَةُ فلسطين

الطبعة الثانية

١٩٤٩

الطبعة الاولى : ١٩ آذار ١٩٤٩

الطبعة الثانية : ٩ نيسان ١٩٤٩

جاءت على العرب تجربة . وكانت اول ما يمر بهم بعد تحررهم من الحكم الاجنبي . فلم يصمدوا لها . واصيبوا فيها بكارثة قومية شديدة . وأصبحوا على اثرها معرّضين لضربات وكوارث آخر . تلك تجربة فلسطين وكارثتها .

وما كان وقوع الكارثة امراً محتوماً . وكان من الممكن اتقاؤها . بل لقد كان في ثنايا التجربة فرصة للخلاص من الصهيونية وأخطارها . لكننا لم نحسن العمل . فجاء الفشل والهزيمة بديلين من نصر كان يجب ان نحققه . وهكذا ضاعت الفرصة ، وضاعت فلسطين ، وحلت الكارثة .

وقد اذهلتنا الصدمة الشديدة . ثم اخذنا نصحو . واخذ كل عربي يسأل : كيف وقعت الكارثة ؟ ولماذا سارت الامور في هذه الطريق ؟ ما هي اخطاؤنا ؟ واين مواطن الضعف التي أُتينا من ناحيتها ، والثغرات التي دخل العدو علينا منها ؟. ثم ، ماذا يجب ان نعمل الآن ؟ كيف ندفع الخطر الشديد المرتقب ، ونستردّ الوطن العزيز المغتصب ؟

وهذا ما نحاول اليوم ان نعالجه .

• • •

ولقد كان المسبب الاول للكارثة الانكليز. فهم الذين وعدوا اليهود بفلسطين « وعد بلفور ١٩١٧ » وجعلوا لهم فيها « وطناً قومياً » . ثم فتحوا لهم ابوابها. وبسطوا لهم من رعايتهم وحمايتهم ما مكنهم ان يستوطنوا فيها ويكثروا . وفي حماية الحراب البريطانية نشأت المستعمرات اليهودية وانتشرت ، وطغى سيل الهجرة اليهودية . وتحت جناح الانتداب البريطاني أفرخ الارهاب اليهودي وترعرع . وعلى ايدي الانكليز تدرّب وتمرّس ، حتى آل الى قوة عسكرية منظمة . وفي غضون ذلك منعنا الانكليز ان نتسلح ، واغمضوا أعينهم عن تسلح اليهود . حتى اذا وقف البناء اليهودي الذي اقاموه على رجليه ، واشتد ساعده ، اخلوا لهم الميدان ، وخلوا بيننا وبينهم . ونحن عزل وهم مسلحون . ثم انسحبوا . وادعوا الحياد .

الانكليز هم المسبب الاول للكارثة . وعليهم وزرها. يشاركهم فيه الامريكيون والروس . هذا امر مفروغ منه . لكننا على كل حال وجدنا انفسنا امام اليهود وجهاً لوجه . ودخلنا واياهم في معركة لتقرير المصير . وبالرغم عما فعل الانكليز والامريكيون والروس ، فقد كان في مقدورنا ان نربح المعركة وان ننتصر.

ونحن انما نقصد الآن ، في هذه الرسالة ، الى تعرّف أخطائنا الكبرى ، ومواطن الضعف فينا ، التي حرمتنا النصر ، وامكنت منا الكارثة . والتي ستؤدي ان بقيت الى توالي الكوارث والنوازل .

اجمـــال

•

مرت معركة فلسطين في دورين : ففي الدور الاول كان عبء الدفاع ملقى عـــلى عاتق الفلسطينيين . وفي الدور الثاني تناولته الجيوش العربية . لكن العرب لم يحسنوا الدفاع عن فلسطين في كلا الدورين .

في الدور الاول ، كانت مواطن الضعف الاساسية في الدفاع العربي ، أنّا كنا على غير أهبة ، وإنْ لم نؤخذ على غرة . وكان اليهود على أهبة كاملة . وأنّا سرنا في المعركة على مقياس الثورات السابقة . وسار اليهود فيها عـلى مقياس الحرب الشاملة . وأنّا أدرناها على طريقة موضعيةٌ ، دون وحدة ، ودون شمول، ودون قيادة عامة . فكان دفاعنا مفككا ، وأمرنا فوضى . كل بلد يحارب وحده . ولم يدخل المعركة إلا ابناء المناطق المجـــاورة لليهود . وادارها اليهود بنظام موحد ، وقيادة موحدة ، وتجنيد عـــام . وانّ سلاحنا كان رديئاً وناقصاً . وكان سلاح اليهود حسناً قوياً . وان اهدافنا في المعركة كانت مضطربة متباينة . وكان هـــدف اليهود كسب المعركة .

هـــذه الثغرات نفسها كانت مواطن الضعف في دفاعنا ، في

الدور الثاني ، دور الجيوش العربية : التفكك ، وفقدان القيادة الموحدة ، والارتجال ، وتباين الاهداف . وزاد عليها التخاذل ، وعدم الجد في الحرب .

وكما اننا لم نحسن العمل في الميدان العسكري ، كـــذلك لم نحسنه في الميدان السياسي . كانت اعمالنا مرتجلة . وكانت تصرفاتنا سلسلة من الاخطاء الكبيرة. ولم يكن لنا هدف واضح ،ولا خطة معينـــة .

وكانت النتيجة الطبيعية لهذا وذاك ، ان حلت بنا الكارثة ، واضعنا فلسطين .

وانما كانت هذه الثغرات انعكاساً لحالة الامـة العربية والنظم القائمة فيها . فهي في نظامها السياسي مفككة . يقوم نظامها عـلى التجزئة . وقد انعكس ذلك على صفوفها في المعركة ، فكان هـذا التفكك والتخاذل . ثم ان زمامهـا في ايدي حكومات عاجزة . تنقصها الكفاية . والامة نفسها لا تزال ضعيفة الوعي والنمو .

ان ضياع فلسطين كارثة شديدة بعيدة الاثر في كيان الامـة العربية . لكن الخطب لا يقتصر على ضياعها . لقد انفتحت بضياعها اخطار جديدة اشد هولاً وابعـد اثراً . وبات الكيان العربي كله مهدداً . فان اسرع العرب لتلافي الخطر قبل استفحاله ، فلذلـك مجال . والوقت لم يفت . وإلا ، فان هـــذه المقدمات تؤدي الى نتائجها الطبيعية .

ونحن انما دُهينا وأُتينا ، اولا ، من قبل التجزئة التي اورثتنا التفكك والتخاذل. فعلاجنا الاول في الوحدة . لنعود عصبة قوية

متماسكة ، وصفاً واحداً كالبنيان المرصوص .

ولقد كانت هذه الوحدة ، لحسن الحظ ، هدفاً رئيسياً لحركتنا القومية منذ نشأتها . كما كانت تاريخياً هي الاصل والاساس في كياننا .

غير ان هناك عوائق تقف في سبيل الوحدة الشاملة ، في الوقت الحاضر . فلا مناص من تضييق الدائرة . لتكون الوحدة ادنى الى التحقيق العملي . وهنا يلوح لنا « الهلال الخصيب » بامكانياته الواسعة . واذن فلنقنع الآن بوحدة اقليمية تجمع اقطار هذا الهلال . على ان تكون نواة لوحدة اعم ، وان يبقى الباب فيها مفتوحاً لدخول من يشاء من اقطار العرب .

لكن الوحدة لا تكفي وحدها . فان اجهزة الحكم الحاضرة هي ايضاً مسؤولة عن الكارثة . وهي اعجز من ان تنهض بالامة العربية ، وتقيل عثارها ، وتدرأ عنها الاخطار المقبلة . واذن فلا بد مع الوحدة من التجديد في الحكم ، تجديداً يضمن الصلاح في نظامه ، والكفاية في جهازه ، والتقدم في اهدافه . ويشمل السياسة الداخلية ، والسياسة الخارجية .

ولا يكفي هذان ، حتى يكون ثالثهما العناية بالشعب وانهاضه ، وامداده بالعناصر الاولية للقوة ، حتى تنعكس القوة عنه الى الدولة والى الوطن ، واشراكه في ادارة شؤونه ، والاشراف والرقابة عليها ، وان تؤدى اليه حقوقه الكاملة ، كما تفرض عليه الواجبات . واول حقوقه واقدسها الحريات بانواعها : الاساسية ، والسياسية ، والمادية . ثم المساواة الحقيقية . وتأمين العمل . والتأمين الاجتماعي .

ونشر الخدمات الاجتماعية . واول واجباته ان يعرف حقوقه ، ويؤمن بها ، ويعمل لها .

ويجب اقامة نظام تربوي قوي شامل . هدفه تنشئة جيل جديد قوي واع ، قادر على حماية الوطن العربي واسترداد كرامته .

وان يوضع برنامج شامل لاستغلال موارد الثروة. حتى يمكن انشاء جهاز دفاعي قوي للمحافظة على البلاد ، وحتى يمكن رفع مستوى المعيشة ، وانهاض الشعب .

هذه الشؤون هي مسائل الساعة لنا في هذا الظرف العصيب . وأن سير التاريخ العربي سيكون مرتبطاً الى حد بعيد بالطريقة التي نعالجها بها ، والنتائج التي نصل اليها فيها .

هذا عرض سريع يجمل ما تتضمنه رسالتنا هذه الى الامة العربيـــة .

معركة فلسطين في دورها الاول

١ كانون الاول ١٩٤٧ ـ ١٥ ايار ١٩٤٨

●

بين الاعداد والارتجال

في عام ١٩٢٠ ، دار حديث بين فرنسي مستوطن في فلسطين ويهودي من سكان المستعمرات . فقال اليهودي : لنا في فلسطين عدوان : الملاريا والعرب . اما الملاريا فعلاجهـــا الكينا ، واما العرب فعلاجهم هذا . واشار الى بندقية يحملها .

منذ ذلك اليوم يستعد اليهود للمعركة ، ويدخرون السلاح . وقد اكتشفت في ميناء حيفا ، عام ١٩٢٢ ، شحنة كبيرة من السلاح مرسلة الى اليهود . واكتشفت شحنة اكبر منها عام ١٩٣٣ في ميناء يافا مهربة اليهم في براميل الاسمنت . ولا شك ان تهريب السلاح ظل مستمراً بين التاريخين .

وكان اول مظهر عسكري ظهر اليهود به ، يوم قاد الكولونيل جابوتنسكي الجنود المسرحين اليهود وهاجم بهم العرب خلال ثورة القدس (٤ نيسان ١٩٢٠) .

وجابوتنسكي هذا هو الذي الف فيما بعد حزب الصهيونيين

الاصلاحيين الذي يمثل الصهيونية المتطرفـــة ، او بتعبير ادق ، الصهيونية السافرة الصريحة ، والذي تنتمي اليه منظمة (ارغون تسفائي لئومي) العسكرية . وكان جابوتنسكي صريحاً في الجهر باهداف الصهيونية الواسعة ، وضرورة الاعتماد في تحقيقها على القوة ، وتأليف فرقة عسكرية يهودية لذلك .

وكان اليهود اول الامر يدربون وينظمون عسكرياً تحت ستار المنظمات الرياضية . حتى كانت الثورة العربية « ١٩٣٦ — ١٩٣٩ » فانتقلوا في ذلك الى العلانية . وجعلت الحكومة المنتدبة تتولى تدريبهم على ايدي ضباط من الجيش البريطاني . وكان ذلك بدء مرحلة جديدة في تكوين « الهاغانا »[١] .

ولما اعلنت الحرب العامة ، اقبل اليهود على التطوع في الجيش البريطاني . وجعلت مؤسساتهم تدفعهم الى ذلك . لغايات سياسية وعسكرية واقتصادية ، كان في مقدمتهـا ان يتلقى شبانهم تدريباً عسكرياً على نطاق واسع .

وقـد اغتنموا كل ظرف في الحرب للتسلح الواسع . فهرّبوا بواخر محملة بالسلاح من طبرق . واستولوا بشتى الوسائل على كميات كبيرة اخرى منه من المعسكرات البريطانيـــة في فلسطين .

---

(١) يرجع تأليف « الهاغانا » الى عهد اضطهاد اليهود في روسيا واوربا الشرقية . وكانت اذ ذاك نظاماً يهودياً خاصاً للحراسة أنشأه اليهود تجاه الاضطهاد . وقد جاؤوا به معهم الى فلسطين منذ اول هجرتهم اليها . وكان في اول امره مجرد حراسة ذاتية خاصة للمحافظة على السكان اليهود وممتلكاتهم . وكان يستعمل بوجه خاص في المستعمرات . ثم تطور الى قوة عسكرية منظمة . والهاغانا اليوم هي الجيش اليهودي الرسمي .

واشتروا كميات غيرها من تجـــار الاسلحة الذين كانوا يهربونها من الصحراء الغربية ومن المعسكرات البريطانية في مصر . وقـــد اكتشفت من ذلك بضع حوادث نظرتها المحاكم العسكرية . وكذلك انشأوا مصانع للاسلحة الخفيفة .

وفي اوائـــل الحرب ظهرت منظماتهم العسكرية «شتيرن» و « ارغون تسفائي لئومي » ومعناها المنظمة العسكرية القومية .

ومنذ عام ١٩٤٣ شرعوا يقومون باعمال الارهاب ضد الانكليز وحكومة الانتداب .

اما العرب فكانوا يرون هذا ، ويتخوفون من نتـــائجه ، ويشعرون بالحاجة الى مقابلته بالمثل . لكن لم تقم فيهم حركة جدية للتسلح والتدريب العسكري . فقد كانوا خارجين من ثورة اخذهم الانكليز خلالها بالقسوة والبطش الشديد « ١٩٣٦ — ١٩٣٩ » . وكانت المحاكم العسكرية تحكم بالاعدام على من يوجد عنده او قرب بيته سلاح او ذخيرة ، ولو رصاصة . وكان الانكليز قد جمعوا ما تخلف عند العرب من سلاح الثورة . وكانت قوانين الطوارىء والمحاكم العسكرية لا تزال قائمة بسبب الحرب .

وكذلك كانوا يرغبون عن التطوع في الجيش البريطـــاني . لموقف الانكليز منهم . وانسياقاً مع العاطفة .

لاذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره

وعلى هذا كان واضحاً ان اي حركة للتدريب والتسلح يجب ان تجري خارج فلسطين . في البلاد العربية المجاورة . ولكن هذا ايضاً لم يحصل . بلى ، كانت محاولة . فحال دون نجاحها فقدان الوحدة

والانسجام في البلاد العربية .

وإذن ، فقد بدأت المعركة ولم يكن لدى العرب اي استعداد لها يعتدّ به . في حين ان اليهود كانوا قد قطعوا شوطاً في الاهبة والاستعداد . فقد كان لهم هدف ، وكانوا يستعدون له .

ومع هذا فقد كانت المبادرة الى المعركة من جانب العرب . وكانت الفكرة ان النجدة تأتي مع الصباح . وان المعركة هي التي تقضي على التردد ، وتستدر العون والمدد .

لكن ، في الامور التي تترتب عليها نتائج خطيرة، والحركات التي تقرر مصائر الشعوب والاوطان — بوجه خاص — لا يجوز الاعتماد على وحي الظرف ، وسوق الحوادث ، والاستدراك ساعة الحاجة ، والركون الى ما في الغيب . لا يجـــوز ان تعالج كبريات الامور معالجة آنية مرتجلة. بل لا بد من التحضير والتهيئة. وان يحسب لكل شيء حسابه ، وتعد للنجاح اسبابه .

« واعدوا لهم ما استطعتم من قوة »

بين الحرب والثورة

لما بدأت المعركة، نقلت وكالات الانباء كلمة لانكليزي عسكري من اصدقاء العرب ، ينصح العرب فيها بالاستعداد الواسع . ويورد مثلا انكليزياً معناه : « اذا كان عدوك فأراً فاستعد له كأنه اسد».

وقد اهملنا النصيحة ، واخذها اليهود .

سار اليهود في المعركة على اسس الحرب الشاملة: تجنيد اجباري عام ، وقيادة عسكرية فنية ، وسلطة عسكرية واحدة ، وتدريب

عسكري واسع ، وسلاح حديث كامل ، ونقل آلي ضخم ، وتحصين فني متين ، وتناسق تام في مختلف الفروع والميادين . وبالاجمال ، تعبئة جميع القوى والموارد ، وتوجيهها كلها الى الحرب .

وسرنا فيها على اساس ضيق محدود . ولم تكن فكرة «الحرب الشاملة» عندنا واضحة . وظلت فكرة الثورات السابقة واساليبها هي المسيطرة ، بوجه عام .

وقد كانت ثوراتنا الاولى ، فورات شعبية جماهيرية ، تقوم على التهيج العام ، فالتجمع ، فاندفاع الجماهير وانقضاضها .

ثم تطورت ، فنشأت الجماعة الثائرة ، او « العصابة » .

وكان تكوين هذه الجماعات ابتدائياً بسيطاً . فهي تعتمد في تكوينها وادارتها على شخصية القائد وقوته ونفوذه . ولم يكن للعنصر العسكري فيها ، في الغالب ، شأن . وكان سلاحها خفيفاً وقديماً . وكانت وحدات مستقلة ، تعمل منفردة ، دون تناسق وانسجام .

فلما بدأت المعركة اعيد تكوين هذه الجماعات . بنفس المواد والعناصر ، وعلى نفس الاسس والاساليب . فلا تعبئة عامة ، ولا جندية ، ولا عسكرية ، ولا وحدة ، ولا شمول ، ولا تدريب ، ولا تحصين ، ولا سلاح حسن .

ولعل اساليبنا القديمة كانت تجدي في حينها . اما الآن ، وقد قويت شوكة اليهود ، ونشأت عندهم جندية وعسكرية ، واصبح لهم قوات مدربة ، واسلحة ماضية ، وقيادة فنية ، فقد انقضى دور ثورات الجماهير ، ودور العصابات الابتدائية . وصار لا يجدي غير « عسكرية » مثلها .

الشرارة الاولى

صدرت الشرارة الاولى للمعركة في اليوم الاول من كانون الاول ، على اثر قرار التقسيم الذي اصدرته هيأة الامم المتحدة يوم ٢٩ تشرين الثاني عام ١٩٤٧ . وكان اول اشتعالها في مدينة يافا . بأيد مريبة . اكبر الظن ان وراءها يد الانكليز . وقد هيأ لها الجو اعلان الاضراب العام ثلاثة ايام .

أكان يحسن ان نقبل المعركة اذ ذاك ونسير فيها ؟ أكان يجب ان نتريث ونقبل على الاستعـــداد حتى نستكمله ؟ أكان الوضع السياسي يستوجب حقاً قيام المعركة فوراً ، ولو قبل اخـذ الأهبة واستكمال العدة ؟. على كل حال، كان الواقع ان المعركة استمرت، وانا سرنا فيها حتى نهايتها المرة الاليمة .

بين التماسك والتفكك ، والنظام والفوضى

بدأت المعركة . وجعلنا نستدرك النقص . واخذت قوتنا تنمو قليـلاً قليلا . وربحنا على اليهود جولات اولية هنا وهناك . حتى خيّل الى البعض انا لمسنا النصر . وان اليهود خسروا المعركة والقضية معاً .

لكن نقصاً اساسياً في نظامنا الحربي ظل يكوّن في صفوفنا ثغرة واسعة ، بقيت مفتوحة حتى دخل العدو علينا منها . ذلك انه لم يكن للمعركة قائد عام في الميدان يديرها مباشرة ادارة موحدة. واستُعيض عن ذلك بطريقة غريبـة في الحروب . وبالرغم عن ان

المعركة واحدة ، وميدانها واحد ، واننا فيها جماعة صغيرة واحدة ، في قطر صغير واحد ؛ فقد جزّيء الميدان ، واديرت المعركة على طريقة موضعية مجزأة . وهكذا دخلنا حرباً بدون قائد . وجعلنا نحارب فرادى ، في جبهات مفككة . كل مدينة تحارب وحدها . لا تضمها قيادة ، ولا يجمعها نظام . وفقد من المعركة عامل الاشتراك والوحدة . ولم يكن فيها نوع من الاتصال والتعاون بين الجبهات ، ولا مظهر من الانسجام والتناسق بين العمليات .

وكان اليهود احسن منا تنظيماً . كانت لهم قيادة عسكرية عامة ، وكانت قواهم مجتمعة ، وجبهاتهم متماسكة ، وحربهم واحدة .

وقد استغلوا هذا التفكك وهذه الفوضى في نظامنا الحربي الى اقصى حد . فلما حانت الساعة ، جعلوا يجمعون جموعهم كلها ، ثم يوجهونها الى جهة واحدة يختارونها ، فيضربونها ضربة شديدة مركزة . وتتلقى الفريسة الضربة وحيدة . وتحمل وحدها الثقل كله . دون نجدة او معونة ، او محاولة لتخفيف الضغط ، حتى تنوء تحت وطأته ، وتسقط .

وتنظر المراكز الاخرى الى ما يجري في جوارها ، وتنتظر دورها ، ولا تستطيع عمل شيء . لانشغالها بنفسها ، وفقدان العامل المشترك : القيادة .

وهكذا تهاوت البلاد ، بلداً تلو بلد ، وقرية بعد قرية ، ومركزاً اثر مركز . وكذلك تفعل التجزئة وعدم الوحدة . فكم تنال منا ، في كل ناحية ، هذه التجزئة .

عدم الشمول

وليس هذا وحده . فالى جانب الحرب الموضعية المجزأة ، كانت معركة فلسطين قاصرة على قسم من فلسطين . لم تشمل البلاد كلها . ولم يشترك فيها ابناء فلسطين كلهم . وانما حمل اعباءها واثقالها الذين كانوا يجاورون اليهود . وبقي البعيدون بعيدين عنها . الا حين تدنو الحرب منهم . يتابعون اخبارها وتطوراتها بلهفة ، ولكن لا يساهمون فيها . كأنهم ليسوا من فلسطين . او كأن الأمر لا يعنيهم ، والنتائج لا تصيبهم . وهكذا فقدت الحرب صفة « الشمول » . وغاب عنها اشد الرجال ، وابناء الجبال . وظل في معزل عن المعركة « مثلث الرعب » و « جبل النار » [1]

وكان ذلك ايضاً من آثار التجزئة والتفكك في نظامنا الحربي . والطريقة الموضعية التي سرنا عليها . وفقـــدان النظرة الشاملة ، والقيادة الموحدة .

على حين جند اليهود للحرب ، لا كل ابنائهم فحسب ، بل وكل بناتهم ايضاً ، في كل مكان ، وكل مستعمرة ، مهما بعدت عن جوار العرب واطمأنت في قلب المحيط اليهودي . حتى المهاجرين الواصلين حديثاً . لقد كان عندهم تجنيد عام ، ونظام عسكري شامـــل .

---

(١) خلال ثورة ١٩٣٦ ، اطلق « مثلث الرعب » على منطقة نابلس ـ طول كرم ـ جنين . ويطلق اسم « جبل النار » منذ القديم على منطقة الخليل .

السلاح

وقد ظلت المعركة تعاني نقصاً خطيراً في السلاح . في كميته، وفي كيفيته ، وفي انواعه . كان السلاح قليـــلاً ، ورديئاً ، وخليطاً مختلف الطراز . وكان عند اليهود انواع منه لا يوجد عندنا منها . كالمدفعية الخفيفة التي مهدت لاستيلاء اليهود على المـدن العربية . ولو كان لدى العرب منها ، فقابلوا اليهود بالمثل ، لاضطروهم الى الكف ، على الاقل . لانهم كانوا اكثر كثافة في المباني والسكان. فاثرها فيهم اكبر . والخسائر عندهم تكون اكثر .

والمؤكد على كل حال ، انه لو كان السلاح موفراً للعرب الى درجة قريبة من التكافؤ فيه . لتغير وجه المعركة . ولا يفـل الحديد الا الحديد .

والمؤكد كذلك ، ان امكانيات تدبير السلاح ، والحصول عليه من مصادره ، لم تكن مسدودة .

وانه ليحزّ في النفس، ان نرى الكارثة تنزل، والبلاد تؤخذ ، والامـــلاك تسلب ، والأموال تنهب ؛ ونحن بين العجز وسوء التدبير ، لا نستطيع عمل شيء في موضوع السلاح ، المادة الاولى للحرب ، لدفع العدو .

ان قضية السلاح تؤلف اشد نواحي المأساة سواداً .

النقص العسكري

كان العرب في هذا الدور من المعركة يحاربون على طرق وأسس

شعبية . ولم يكن بينهم ، في الاكثر ، ضباط عسكريون ينظمونهم ويقودونهم ، ويرسمون لهم الخطط ، ويرتبون شؤون الحرب ، ويديرون المعركة . الا قليلاً من الضباط ارسلوا الى قليل من المراكز في وقت متأخر . فكانوا يسيرون في القتال بقدر ما توحي اليهم الفطرة والشجاعة ، وغريزة الدفاع عن النفس والبيت والولد .

وكان من نتائج ذلك ان القوى والوسائل الميسورة ، على قلتها ، لم تكن تستخدم كما يجب . ولو انها استخدمت استخداماً كاملاً لازدادت قيمتها العسكرية اضعافاً مضاعفة .

ضعف الدفاع في المدن الكبرى

كان الجزء الاهم من المعركة يدور في المدن الكبرى . وكان اول ما يجب العناية به ، الدفاع عن هذه المدن، وعن مواصلاتها، والاحتفاظ بها . لقيمتها في المعركة وفي النتائج التي تترتب عليها . لكن اساليب الدفاع في المدن ظلت فطرية ساذجة ، وقوى الدفاع فيها ظلت صغيرة محدودة ، الى نهاية المعركة . فسقطت دون ان يدافع عنها الدفاع الجدي الواجب .

اللجنة العسكرية وجيش الانقاذ

لما بدأت المعركة ، قامت الجامعة العربية بمحاولة لسد النواقص العسكرية في فلسطين . فالفت لذلك لجنة عسكرية القت عليها اعباء الحرب . لكن هذه المحاولة جاءت متأخرة . وكانت على

مقياس صغير ، ومستوى منخفض . فلم تنجح .

وقد الفت على عجل قوة عسكرية صغيرة ، دعيت « جيش الانقاذ » واريد منها ان تكون قوة ضاربة . وترك عبء الدفاع على القوات المحلية . فلا هي لصغرها أجْدَتْ في الهجوم ، ولا هي استخدمت للدفاع حيث كان يجب تقوية الدفاع .

الهدف

في كل حركة ، وفي كل طريق ، انما يحدد الاتجاه ، ويضبط السير ، ويملي الخطة ، وينظم الاعمال ، ويعين نوعها وطبيعتها ؛ الهدف المطلوب .

فمـــاذا كان هدفنا في المعركة الفاصلة ، امام الخصم العنيد ، والخطر الشديد ؟ .

كان الشيء الطبيعي ، وكان الواجب ، ان يكون الهـــدف الوحيد الذي تنصب اليه كل القوى ، وتتوحد فيه كل الجهـود ، اثناء المعركة ، قهر العدو وكسب المعركة . ولا شيء غيره .

لكن الامر لم يكن كذلك . فقـد كانت العيون تزوغ عن الهدف الصحيح الى غـيره . وكانت الابصار في المعركة ترنو الى ما بعد المعركة . وكان كل تدبير من تدابير الحرب يخالطه الحرص على تأمين الاهداف الخاصـــة الاخرى . وقد تهمل مقتضيات الحرب ، او توضع في المرتبة الثانية ، وتقدم عليها اعتبارات خاصة ، تقتضيها تلك الاهداف الخاصة .

فلما اضطرب الهدف ، اضطربت معه الاعمال ، واختلط الامر ،

وشاع فيه الفساد. وكانت النتيجة ضياع الهدفين. وخسران المعركتين.

...

وكذلك سرنا في معركة فلسطين. معركة المصير والبقاء. معركة الموت والحياة. في جولتها الاولى، بين اول كانون الأول عام ١٩٤٧ ومنتصف ايار عام ١٩٤٨. حتى انتهينا الى الجلاء، والهزيمة النكراء، والتشتت في الآفاق، وفقد البيت، والبلد، والوطن، واضاعة كل شيء.

انصاف

وان من الحق والانصاف للجهاد العربي الفلسطيني، ان نشير الى صفحات منه جديرة بالذكر، وبالاشادة، وبالخلود.

فبالرغم عن كل هذه الظروف، سجل العرب وقفات مثالية رائعة. وكانت سلمة، وابو كبير، والقدس، والقسطل، وبيت صفافا، وكفر سابا، وباب الواد، والرملة، والطنطورة، واجزم، وجبع، والطيرة، وغيرها — طافحة بآثار المزايا والصفات العربية الموروثة. وشاهدة على صفاء المعدن، وسلامة الجوهر.

واذا كان الفلسطينيون قد جلوا في النهاية عن بلادهم، فما كان ذلك عن جبن. لكنهم فقدوا كل ثقة بنظام الدفاع القائم، بعد ان رأوا ضعفه وعيوبه وثغراته. ورأوا اختلال التوازن الشديد بينهم وبين اليهود في الوسائل والتنظيم. وقيل لهم ان الجيوش العربية آتية. وستردّ الامر الى قراره، وتعيد كل شيء الى نصابه. فاطمأنوا الى ذلك. وتعلقت آمالهم به. وكان امامهم شبح

«دير ياسين» وما كان فيها من وحشية وانتهاك للحرمات والاعراض.

وقد رأينا الشعب الفرنسي، في الحرب الماضية، وهو شعب شجاع ألف الحرب، يجلو عن مدنه وقراه. ويهيم على وجهه. مع ان له جيشاً عظيماً موكلاً بحمايته. وكذلك فعل السكان المدنيون الالمان في نهاية الحرب. ذلك شأن السكان المدنيين العزل حين يهاجمهم عدو يتعمد استعمال الوحشية والقسوة، ولا يجدون ما يدفعونه به.

وقد كان اجلاء العرب وتشتيتهم امراً متعمداً مقصوداً عمل له اليهود بخطة مرسومة، تقوم على القسوة.

افضى «مناحم بيغن» زعيم منظمة «ارغون تسفائي لئومي» اليهودية، بتصريح في نيويورك لما ذهب اليها على اثر اغتيال الكونت برنادوت، قال فيه: [1]

في الشهر الاخير الذي سبق نهاية الانتداب، وضعت الوكالة اليهودية برنامجاً جديداً، وعهد الي القيام بمهمة وطنية شاقة تكون كمقدمة للاستيلاء على بعض المدن العربية قبيل جلاء القوات البريطانية، وخصوصاً تشتيت اهلها العرب. واتفقت الوكالة اليهودية معنا على ان ننفذ تلك التدابير، بينما تستنكر هي كل ما نفعله، وتزعم اننا عصاة منشقون. كما كانت تفعل يوم كنا نكافح القوات البريطانية. فضربنا ضربتنا بقسوة، والحق يقال، لنلقي الذعر في قلوب العرب. وهكذا تم لنا تشتيت السكان العرب من الاراضي التي تدخل ضمن نطاق الدولة اليهودية. انتهى.

---

(١) التصريح عن جريدة «الحياة» البيروتية الغراء، الصادرة يوم ٢٨ / ١٢ / ١٩٤٨، مع الاختصار.

المعركة في الدور الثاني

١٥ أيار ١٩٤٨

●

الجيوش العربية

خرج الفلسطينيون من بيوتهم . وجلوا عن ديارهم . وتشتتوا في الآفاق . وفقدوا كل شيء . . لكن بقي لهم الامـــل الراسخ الوطيد . فقد كانت الجيوش العربية على وشك الدخول الى فلسطين . فستنقذ إذن البلاد . وستعيد الامور الى طبيعتها ومجراها . وستثأر للحرمات . وستؤدب البغاة . ثم تلقي بالصهيونية الطاغية ، واحلامها واخطارها ، الى البحر .

وفي اليوم الرابع عشر من ايار عام ١٩٤٨ ، وقفت جموع العرب في الطرق المؤدية الى حدود فلسطين ، متهللة مستبشرة ، تحيي ابناءها الزاحفين .

ومرت ايام واسابيع كانت كافية لانهاء المهمة المقدسة . لكن الجيوش العربية لم تنقذ البلاد . ولم تفعل شيئاً . بل لقد انتزعت من بين ايديها ، عـكا ، وصرفنـــد ، واللد ، والرملة ، والنـاصرة ، ومعظم الجنوب ، وسائر الشمال .

ثم تبدد الامل !.

ونظرنا . فاذا الثغرات الواسعة التي دخل العدو علينا منها في الدور الاول ، ونحن شعب ومجاهدون ، هي بعينها توهن صفوفنا وتضعف قوانا ، في الدور الثاني ، ونحن دول وجيوش نظامية : التفكك ، وتباين الاهداف ، والارتجال ، وضعف الاستعداد ، بل والنقص العسكري .. هي هي . وزاد عليها التخاذل ، وعقم الخطة ، واهمال القوى المحلية ، وعدم الجد في الحرب .

التفكك والتخاذل

ففي هذا الدور ايضاً ، كانت صفوفنا امام العدو مفككة ، وجبهاتنا مستقلة ، وحربنا موضعية . ولم تكن لجيوشنا قيادة موحدة . نعم ، لقد اتفقوا على قائد اعلى . لكن هذا ظل اسمياً . وظل كل جيش مستقلاً في عملياته وخططه . وفقد من الميدان عامل الوحدة والتعاون والتناسق والانسجام .

وعلى هذا لم تستطع الجيوش العربية ان تجمع قواها وتوجهها رأساً الى قلب العدو ، في حملة قوية صادقة متناسقة ، فتضربه الضربة الحاسمة . بل على العكس ، استغل العدو مرة اخرى هذا التفكك ، بل التخاذل ، في صفوفنا . وجعل يجمع كل قواه ويوجهها كلها مرة واحدة الى جبهة واحدة . ويضرب بها جبهاتنا جبهة بعد جبهة . وجيوشنا واحداً بعد واحد . ضربات مركزة . وهي تقابله فرادى . لا يتحرك احدها عند الهجوم على الآخر . فلا هي ترد الضربة ، ولا تمنع الحمى . ثم يكرر ذلك مرة بعد مرة .

وكذلك انتزع العـــدو من بين ايدي الجيوش العربية الستة ، الرملة ، واللد ، والناصرة ، والجنوب ، والشمال .

الارتجال

ولقد دخلت الجيوش العربية فلسطين ، وليس لديهـــا بعض الاوليات الضرورية المتعلقة بفلسطين .

وكانت حكوماتها تنذر بالحرب من قبل . فلما وقعت الحرب اذا هي على غير أهبة . وانجلى الوعيد عن مخاض الجبل . ولم تشرع في استدراك النقص واستكمال العدة الا بعد ذلك . ولا تدري اكان ذلك عن استهانة بالعدو ، او بالمهمة ، او بكلا الامرين ؛ ام كان عن تواكل بينها واعتماد كل على الآخر ؛ ام كان ناشئاً عن مجرد الاهمال ، وعادة الارتجال .

عدم الجد في الحرب

وبالاجمال ، كان عدم الجد في الحرب ، وعدم ادراك نتائجهـا البعيدة ، وعدم الشعور بالمسؤولية الكبرى التي تترتب عليهـــا ، الظاهرة البارزة خلال المعركة كلها . سواء في الجبهة وفي ما وراء الخطوط .

اما في الجبهـة ، فكان ذلك واضحاً فيما سلف . وفي وقوف الجيوش دون القيام بأي نوع من العمليات العسكرية الجدية التي جاءت لاجلها . وفي مقدار خسائرها .

واما وراءها ، فقد كان قيام الحرب يقتضي ان تقوم الاستعدادات

للحرب على قدم وساق، وان تعبأ جميع قوى الامة ومواردها وتوجه الى الحرب . لكن شيئاً من ذلك لم يكن . وظلت الحياة العادية الوادعة تجري مجراها الطبيعي .

وحسبنا هذه الملاحظة اللاذعة التي تناقلتها صحفنا عن مراقبي هيأة الامم وموظفي الصليب الاحمر . إذ قالوا انهم حين يكونون في تل ابيب أو حيفا ، يشعرون بضيق لا يحسون بمثله حين يأتون الى العواصم العربية . فهناك جو الحرب في كل ناحية : التقنين ، والتقتير ، والتعتيم ، والحرمان من وسائل الراحة والترفيه ، وتوجيه كل شيء الى الحرب. وهنا جو الصفو والدعة ، والاستمتاع بجميع وسائل الراحة والرخاء والنعيم .

لقد دخلوا حرباً وناموا . والعدو لم ينم .

في الميدان السياسي

•

ذلك في الميدان العسكري من معركة فلسطين. اما في الميدان السياسي ، فقد كانت تصرفاتنا سلسلة من الأخطاء الكبيرة ، ظلت تسير بالحالة من سيء الى اسوأ ، حتى انتهت الى الكارثة . وكان الارتجال وعدم تحديد الهدف الصفتين الملازمتين لنا في كل اعمالنا السياسية . كنا نذهب الى المعركة بدون هدف واضح ، وبدون خطة معينة . ولم نكن نحسن من المواقف غير الموقف السلبي . وكانت في ايدينا اوراق رابحة قوية ، فلم نعرف كيف نستفيد منها . حتى خسرنا كل جولة . وفشلنا في كل شوط . وكان في السياسة الدولية معسكران كبيران مختلفان ، اشتد الخلاف بينهما حتى لم يتفقا في صغيرة ولا كبيرة . وكنا نملك وسائل قوية للتأثير واكتساب الانصار . فلم نحسن استخدام هذه الوسائل ، ولا استغلال ذلك الخلاف ، ولم نستطع اكتساب احد المعسكرين . بل لم نستطع ان نحول دون اتفاق الخصمين علينا . وكان ذلك هو الشيء الوحيد الذي اتفقا عليه ، وتمت المعجزة فيه .

ولعل اكبر فشل سياسي سجلناه ، عجزنا عن ايجاد نوع من الوحدة الصادقة بيننا امام العدو المشترك ، في أحرج اللحظات ،

وفي المعركة التاريخية الفاصلة ، ونحن نشهد الكارثة باعيننا . إذ كنا نفقد وحدة الكلمة ، ووحدة الصف ، ووحدة الهدف .

الهدنة

وكانت الخطيئة الكبرى ، قبول الهدنة في اليوم العاشر من حزيران ، بعد مرور خمسة وعشرين يوماً على بدء المعركة ، دون أن تكون الجيوش العربية قد اتمت واجبها ، ووصلت الى نتيجة حاسمة . نعم ان مجلس الامن ، والانكليز والامريكيين بوجه خاص ، جعلوا يتدخلون ويضغطون على الدول العربية لوقف القتال . وقد منع الانكليز عن العرب السلاح الذي تقضي به المعاهدات القائمة بينهم . ثم جاؤا باقتراح تعيين « وسيط دولي » يكون رسولاً للسلام ، واقتراح « هدنة الاسابيع الاربعة » لانقاذ الموقف اليهودي السيء . لكن هذا كله لا يبرر الخطيئة التي مهدت للفشل والكارثة . لقد كان هذا الضغط مقدراً ومتوقعاً من قبل . وكان كل واحد يرى وجوب الفراغ من العملية واتمام كل شيء في اقصر مدة ممكنة . قبل ان تتدخل الدول . وقد أُعطينا الفرصة الكافية لذلك . فأمّا وقد حال التواني والتخاذل وعدم الجد دون انزال الضربة السريعة الحاسمة ، فكان يتعين على الدول العربية احد امرين : اما ان تحزم امرها وتستمر في الحرب ، دون ان تعبأ بهيأة الامم ومجلس الامن ، كما فعل اليهود فيما بعد ، حتى تنقذ فلسطين ، واما ان تنهي الحرب على شروط واضحة في فصل القضية التي تحارب من اجلها . اما الهدنة المجردة ، فقد قدّر جميع

الذين يعرفون اليهود، انهم سوف يستغلونها الى ابعد الحدود.

جاء في تصريح « مناحم بيغن » زعيم «الارغون تسفائي لئومي» الذي اشرنا اليه فيما تقدم ، ما يلي :

« ما ان اعلنت الدولة اليهودية حتى دخلت الجيوش العربية الى فلسطين . اما جيش اسرائيل فلم يكن لديه سوى ٨٠٠٠ مقاتل . وقد احسّ حكام تل ابيب بالخطر . ووجه بن غوريون نداء الى العالم يطلب فيه مساعدة الدول الصديقة . وتواردت الانباء من جميع المدن والمستعمرات اليهودية ان الشعب اليهودي اصابه الخوف . وخصوصاً اهل القدس الذين شهدوا فشل القوات اليهودية في فتح طريق باب الواد وتموينهم . وكان الجيش العربي قد دخل القدس وبدأ يقصف احياءنا بمدفعيته الثقيلة. فجعل الشعب اليهودي يقوم بالمظاهرات الصاخبة داعياً الى انهاء الحرب باي ثمن . عندها طلب بن غوريون اليّ ان اذهب الى القدس واتولى حفظ النظام فيها والدفاع عنها . وصلت الى المدينة والشعب اليهودي فيها ثائر يطالب بالخلاص . فاعلنت الاحكام العرفية ومنع التجول واخذت الشبان ووضعتهم في الخطوط الامامية للدفاع . ولكن لاسلاح ولا عتاد ولا غذاء ولا ماء . إلا قنابل الاعداء . وكانت الدوائر الصهيونية في امريكا تعمل لارسال رسول سلام الى فلسطين ، وعقد هدنة موقتة تتلاشى معها الفضيحة الكبرى . ووردت الانباء بان رسول السلام في طريقه الى فلسطين . وتمت الهدنة . فجئنا الى يهود القدس بالطعام وبعض الماء . وكانت الهدنة في صالحنا . فاستعددنا وجلبنا الاسلحة والعتاد والمتطوعين والمحاربين من

الخارج » . انتهى .

هذه صورة عن حالة اليهود قبل الهدنة ، كما يعرضها قوادهم ، وهذا مبلغ استفادتهم منها . فانظر اي خطيئة قد ارتكبت بقبول هذه الهدنة .

المفاوضات الفردية

وشر من ذلك ، ان الأمر انتهى اخيراً الى مفاوضات فردية تقوم بها الدول العربية فرادى ، واحدة بعد اخرى ، مع اليهود ، لاقرار « هدنة دائمة » . وهكذا لم تعرف هذه الدول لا كيف تخوض المعركة ، ولا كيف تخرج منها .

...

وكذلك خسرنا المعركة . واضعنا فلسطين . واضعنا معها كرامة الامة العربية وقيمتها . حتى صارت الصحف الاوروبية تطلق على الدول العربية : « الأصفار السبعة » .

الاسباب الرئيسية

•

فلماذا سارت الامور في هذه الطريق ؟

ان مرد ذلك كله الى ثلاثة اشياء : عدم وجود وحـــدة وانسجام بين العرب، ونظام الحكم القائم في البلاد العربية ، وحالة الشعوب العربية .

التفكك في الجبهة مظهر للتفكك في الداخل . وضعف الجهاز العسكري والسياسي اثر لضعف الجهـاز الحكومي كله . وتقصير الحكومات وتخاذلها نتيجة لضعف رقابة شعوبها عليها . وضعف الرقابة الشعبية من آثار الضعف العام في الشعوب العربية .

عدم الوحدة

كان العرب امام العدو دويلات لا دولة . وشيعاً لا امـة . تخاف احداها من الاخرى ، وتتربص بها ، وتكيد لها ، وتؤلب عليها . أليست قد انقسمت الى معسكرين ؟ . وكان اكثر مايعنيها من امر فلسطين ، ويوجه سياستها ، ليس كسب المعركة وانقـاذ فلسطين من مخالب العدو الشرس ، والتخلص من اخطاره عليها جميعاً ؛ بل ما بعد المعركة : ايها يفوز بفلسطين ويلحقها بأرضه ؟

وكيف يتقي بعضها اطماع بعض ؟ .

وكانت قد اعلنت ان مهمتها انقاذ فلسطين . وانها ستكل امر مصيرها بعد ذلك الى اهلها . لكنها انما كانت تقول ذلك بلسانها . أما في قرارات النفوس فكانت « تُسرّ حَسْواً في ارتغاء[1] » . كل يريدها لنفسه . واكثرهم زهداً يسعى لمنع جاره من الفوز بها . ولو لم يبق منها غير اشلاء وعظام !

وكان هذا التنافس بينها يسلك طريق المداورات المستترة . ثم استعلن واتخذ سبيل المؤتمرات والمباترات .

وكانت النتيجة لهذا ، أنْ كانت في المعركة صفوفاً مفككة ، ترمي لأغراض متباينة ، وتنقصها وحدة الصف ووحدة الهدف ، وان ظهر التخاذل بينها ظهوراً واضحاً ، حتى ظهر عليها العدو ، وحلت الكارثة .

الحكومات

وكان جهاز الدولة في الحكومات العربية عتيقاً وعقيما غير منتج . لقد عجز حتى عن فهم الموقف وادراك مقدار الدقة والخطورة فيه ، وعن متابعة تطوره ، وعن القيام بأي نوع من الاعمال الجدية التي كان الموقف يحتمها ، سياسياً وعسكرياً وادارياً واجتماعياً .

فأما العجز السياسي والعسكري فقد مرت الاشارة اليهما . واما العجز الاداري ، فقد احتلت الدول العربية اجزاء من فلسطين . وقد حصل هناك فراغ اداري بعد جلاء الانكليز . لكن عناصر الادارة كانت لا تزال موجودة . من موظفين ومكاتب .

(١) مثل قديم معناه : يتظاهر بازالة الرغوة عن اللبن وهو يشربه .

وسجلات . وكان من اول الواجبات استمرار الادارة وان لا تتعطل المصالح العامة . وكان ذلك من اليسر بحيث لا يحتاج الا الى الاشارة بالاستمرار . وكان وجود الادارة المحلية كبير القيمة لسير الحرب . ومع هذا فقد تعطلت الدوائر والمصالح . وكان ذلك من مظاهر العجز وعدم ادراك قيمة الادارة المحلية .

واما في الميدان الاجتماعي ، فقد تجلى عجز الحكومات العربية في موضوع اللاجئين ، عجزاً تدل على مبلغه الحالة التعيسة التى يعيش بها هؤلاء التعساء في هذا الشتاء القاسي : اين يقيم اللاجئون؟ وماذا يفترشون ويلتحفون ؟ وبم يستظلون ويتقون ؟ وماذا يأكلون ويلبسون ؟ وكم يموت منهم في كل يوم ؟ .

ولا عذر بالعجز المالي . ان مظاهر الحياة في المدن العربية لا تدل على فقر وعجز الى هذا الحد . والخير في الشعب العربي لم ينعدم . والامر اشد خطورة . وهو في نظر العالم الخارجي مقياس لقيمة العرب وحسن استعدادهم . على ان لب الامر ليس الاحسان والصدقة ، بل التنظيم ، والاخذ باليد ، والمساعدة على العمل ، وفتح مجالات جديدة . ومن العار ان تحرّم الحكومات العربية العمل في بلادها على اللاجئين العرب ، وتوصد دونهم ابوابه . وان تحبسهم في المعتقلات كالاسرى . وان ترسل لاسعافهم مواد من الخارج ، فاذا هي تباع في الاسواق ولا تصل اليهم . وليس الروم والطليان والارمن والاشوريون ، بل واليهود ، بأكثر حقاً من العرب ، في بلاد العرب . وانما يحتاج الامر الى قدر من الكفاية ، وارادة العمل ، والاخلاص فيه ، وحسن التنظيم .

وكانت هذه الامور كلها تجري امام الشعب العربي في مختلف اقطاره . وتحت سمعه وبصره . وكان الامر فيها يتعلق بكيانه وبقائه وحياته. فتركها تجري الى آخر مداها ، حتى حلت الكارثة. وهذا يعني ان نمو الوعي والحيوية في الشعب العربي لا يزال ضعيفاً.

• • •

وكذلك حلت الكارثة ، بين تخاذل الدول العربية وتنافسها، وعجز حكوماتها ، وغفلة شعوبها . وتلك هي اخطاؤنا ، ومواضع الضعف والوهن في صفوفنا ، والثغرات الواسعة التي دخل العدو علينا منها ، وأورثتنا العار والخسار.

ولئن بقيت هذه الثغرات ، فظل العرب شيعاً ودولاً ، تديرها حكومات عاجزة ، بنظم بالية ، وظل الشعب ضعيف الوعي ، قليل الاكتراث ، بعيداً عن الاشراف على شؤونه ؛ فلن تكون فلسطين آخر ما يصيب العرب من كوارث ، ولا أشدها .

هذا الى ان فلسطين يجب استردادها . واسترداد كرامة العرب المضاعة معها . ولا حياة للعرب بدون فلسطين . لقد ادرك اجدادنا هذا جيداً في القديم . وكان ادراكهم خيراً من ادراكنا . يوم تألبت اوروبا عليهم وانتزعتها منهم . فاستماتوا في سبيلها . وظلوا يجاهدون حتى استعادوها . فكذلك اليوم . انما اهي الجولة الاولى في حرب طويلة .

غير ان استرداد فلسطين ، مع بقاء الثغرات والاحوال التي ادّت الى ضياعها ، امر غير ميسور .

الخطر اليهودي

•

وقد نشأ الآن في بلاد العرب عامل جديد خطـــير يجب ان يحسب حسابه . فقد وضع اليهود قدمهم فيها . وصارت لهم فيهـا قاعدة وشوكة . واليهود شديدو الطمع في العرب وبلادهم وما فيها من ثروات وكنوز. ولهم برنامج استعماري واسع ، لا يقتصر على فلسطين وحدها ، بل يتعداها الى اقسام اخرى واسعة من الوطن العربي ، والى اهداف اخرى بعيدة المدى .

وجّه بن غوريون رئيس اليهود رسالة الى قومه ، اثناء اجتماع هيأة الامم المتحدة الاخير في باريس ، قال فيها :

« ان الانتصارات العسكرية الاخيرة هي احدى المقدمات لاهداف اسرائيل البعيدة . فعلى الشعب ان يكتل قواه للوصول الى تلك الاهداف . وان ما ستقرره هيأة الامم المتحدة في الايام القادمـة هو قليل مما ينتظره الشعب اليهودي مدة آلاف السنين . استعدوا للوصول الى الهدف النهائي في بناء الدولة اليهودية ، وجلب يهود العالم اجمع ، وتحقيق البنود الواردة في التوراة . واصبروا لانكم ستواجهون الصعوبات الكثيرة في الوصول الى تلك الاهداف » انتهى[1] .

(١) عن جريدة « الحياة » البيروتية الغراء يوم ٤ كانون الاول ١٩٤٨

في هذه الرسالة اشارات صريحة الى البرنامج اليهودي . وهو برنامج قديم وضع من عهد «هرتسل» مؤسس الصهيونية الحديثة . يقوم على استعمار فلسطين ، وإعادة الملك اليهودي القديم كما كان في عصره الذهبي . ثم اتخاذها قاعـــدة لاستغلال الشرق ، وبسط النفوذ اليهودي الاقتصادي عليه . وهم اليوم ينفذونه مرحلة فمرحلة .

وفلسطين في تعريفهم تشمل فلسطين الحالية ، وشرق الاردن ، واقساماً واسعة في جوانبها من سورية ولبنان ومصر . ويذهب بهم الخيال الى « دولة يهودية كبرى بين النيل والفرات » .

ولا يستبعدن أحد على اليهود ان يكون لهم هـــذا المطمح الواسع والهدف البعيد . فالامر ثابت يعرفه جميـع الذين درسوا تاريخ الحركة الصهيونية وقرأوا كتبها .

وقد رأينا كيف كان اليهود ، قبل الحرب العالميـة الاولى ، يأتون الى فلسطين لينجوا مـــن اضطهـاد اوروبا ، وهم لا ينشدون غير « المـــأوى » . ثم رأيناهم يتدرجون الى « الوطن القومي » . ثم إذا هم يجهرون « بالدولة اليهودية » . وها نحن اليوم نسمع كبيرهم يشير علناً الى « الاهداف البعيدة » ويقول « إنّ هذي إلا إحدى المقدمات » . ثم يتحدث عن « جلب يهود العـالم أجمع » . وأين المساحات التي تتسع ليهود العالم أجمع ؟ . انها غير موجودة في فلسطين . لكن في جوار فلسطين مساحات واسعة ، في البلاد العربية ، فاليها ترنو ابصار اليهود .

لن يكتفي اليهود باقامة دولة لهم في قسم من فلسطين . وانما هم يعتبرونها موطىء قدم وقاعدة للعمليات التالية . وستكون

الخطوة القادمة محاولة استكمال فلسطين والتهام بقيتها . ثم يسيرون بحسب ما تتيح لهم الفرص والظروف ، بل هم سيحاولون خلق الفرص والظروف ، لتنفيذ الاقسام الباقية من برنامجهم ، مرحلة بعد مرحلة .

والاستعمار اليهودي ليس كالذي رأيناه من استعمار الانكليز والفرنسيين . ذلك كان شيئاً عابراً ، لا يتناول الاساس والكيان. اما هذا فهو استعمار قومي . لا يكتفون فيه بمجرد السيطرة السياسية والاقتصادية والقواعد العسكرية . وانما هم يبغون الاستيطان ، واستصفاء البلاد كلها لانفسهم . لتكون « وطناً لهم دون اهلها . امتلاكاً وسكناً وسيطرة . يخرجون اهلها منها ويحلون فيها محلهم. كما رأيناهم يفعلون في فلسطين .

واليهود قوم يمتازون بالخبث والدهاء ، وبالغنى والنشاط ، وتسخير كل قوة ، وسلوك كل سبيل ، للوصول الى اغراضهم . وهم مجهزون بوسائل العلم الحديث في مختلف نواحي النشاط . ولهم قدرة على التنظيم . وتعتبر « اليهودية العالمية » احدى القوى العالمية الكبرى ، بما لها من سيطرة في عالم المال والاقتصاد ، ومن نفوذ متغلغل في السياسة الدولية . وقد اختبرنا بانفسنا مدى هذه القوة وهذا النفوذ .

ثم هم الى ذلك قساة غلاظ الرقاب والاكباد. قضوا الاجيال في اضطهاد دائم ، حتى امتلأت قلوبهم ضغينة وحقداً ، وحتى صار هذا الحقد المتراكم المكبوت يسعى الى منفذ ينطلق منه ليشفي ما في الصدور من غل ، وليشبع ما في النفوس من رغبة في الانتقام.

وقد تعلموا اساليب مضطهديهم في القسوة . وزادوا عليها مما ترخي لهم وتمدهم تعاليمهم الخاصة . حتى اصبحوا بين هذا وذاك لا يستشعرون في تحقيق اغراضهم شفقة ولا رحمة . وقد رأينا نماذج مجسمة من ذلك ، في ابشع الصور ، في فلسطين .

هذا هو عدونا . وهذا هو العامل الجديد الذي نشأ بين اظهرنا . وفي قلب بلادنا . لا شك انه عامل خطير جداً ، وخطر جداً . وان نشوءه ووجوده يحتم علينا ان نكيّف انفسنا وطرائقنا في الحياة ، حتى نستطيع مواجهة الحالة الجديدة .

العـــبرة

•

ولقد رأى العرب بأعينهم بعض نواحي الكارثة التي نزلت باخوانهم في فلسطين ، وسمعوا ببعضها . فهزهم ذلك هزة عنيفة . لكن مدى الكارثة يربي كثيراً على كل ما رأوا وسمعوا ، وكل ما قدّروا وحسبوا .

فقد رأوا مئات الألوف من اخوانهم يخرجون من بيوتهم وديارهم ، هائمين على وجوههم ، في البر والبحر ، وقد تركوا خلفهم كل عزيز .

ورأوهم ينزلون بينهم في منازل البؤس والحاجة : يقيمون بالعراء . ويفترشون الغبراء . ويتوسدون الحجر . ويتقون بالشجر . والله اعلم بما يأكلون ويقتاتون .

ورأوهم تغير عليهم من جراء ذلك الامراض . ويصيب الموت منهم مئات في كل يوم .

وسمعوا بما وقع لهم خلال ذلك من فواجع ومآسي : بين من طغى عليه الموج فأغرقه . ومن انتشل من اليمّ بين الموت والحياة . ومن القى بثقله في البحر لينجو بروحه . ومن اهلكه القيظ والظمأ في الطريق . والتي ادركها المخاض فأنتحت لتضع حملها في

ناحية من الطريق ، وربما هلكت هي والوليد . والتي القت بطفلها الغضّ البريء على جانب الطريق حتى لا تهلك واياه ، ومضت وهي تتلفت اليه ، وتتحرق عليه . والتي ذهلت عن رضيعها فحملت الوسادة . والصغار الذين ضلوا عن آبائهم او فقدوهم الى الابد . والذين لا يعرفون لانفسهم ولا لاهليهم اسماً . والذي لم يجد لصغاره غطاءً في ليالي الشتاء وشدة الزمهرير ، فآثرهم بثيابه ومات من البرد . والذي ضاقت به الحياة فقتل صغاره الثلاثة وزوجه ثم قتل نفسه . والذين جرّدهم العدو عند خروجهم من كل ما حملوا من مال وحليّ . والذين صبّحهم العدو على حين غفلة وهم في بيوتهم آمنون ، فقتّل ومثّل وفظّع وأفحش واعتدى على كل حرمة .

ثم سمعوا بما اعمل العدو بعد ذلك من سلب ونهب فيما خلّف الناجون وراءهم من لباس ومتاع وآنية وبضاعة وزرع وضرع وثمر ، حتى أتى عليها كلها ولم يبق شيئاً .

وانه سكن بعدهم في مساكنهم . واقام في بيوتهم . واحتل مدنهم وقراهم .

وسمعوا كذلك بما محي من قرى كانت عامرة . وما نسف من احياء كانت آهلة .

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا انيس ، ولم يسمر بمكة سامر

رأوا وسمعوا هذا وهذا وكثيراً غيره . لكن هذا كله لا يصور الا طرفاً من ظل النازلة . ولا يعكس الا قليلاً من صدى الكارثة . اما الحقيقة الكاملة ، فهي اشد هولاً من كل ما يستطيع

ان يصف الواصفون ، ويتخيل المتخيلون .

هذا المصير الذي حـــل باخوانهم ، والذي رأوه بأعينهم ، وسمعوه بآذانهم ، يهدد بان يصيبهم مثله ، اذا ظلوا عنه غافلين .

ولو ان الفلسطينيين كشف عن ابصارهم ، فرأوا مـا سينزل بهم ، ثم سئلوا ان ينزل كل واحد منهم عن نصف ما يملك ، لصد العدو ودفع الخطر ، لقدّموه راضين . بل لكانوا يبذلون كل ما يملكون . ولهم ربح سلامة الوطن ، وانقاء الجلاء والشتات .

فاليوم حريّ بالعرب ان يكون قـد كشف عن ابصارهم ؛ بعد هـــذا الذي رأوا وسمعوا من كارثة فلسطين . ومن رأى العبرة فليعتبر .

ولقد وجد الفلسطينيون حـــين نزلت بهم النازلة ، اخوة في جوارهم يأوون اليهم ، ووطناً عربياً ينزلون في رحابه . فاذا اهمل الخطر ، وترك ينمو ويمتد ، حتى يعيد الكرة ، ويصيب الاخوة ؛ فالى اين يأوى العرب حينئذ وايّان يذهبون ؟

اذا عرف العرب هـــذا ، فليتدبروا امرهم ، وليستعدوا من الآن للدفاع عن النفس ، والبيت ، والوطن .

لا تدفـع القوة الا بالقوة . ولا نكون اقوياء حتى نكون عصبة . وحتى نسلك السبيل الوحيـــد الذي سلكته الامم حتى صارت قوية .

سباق

وقد تعين علينا ، منذ قامت دولة اليهود ، ان ندخل معهم في سباق . وقد رأينا مدى السرعة التي يسيرون بها . ولنذكر هنا مثلاً واحداً : كان الميدان العسكري بالنسبة الى اليهود ميداناً جديداً . وكانوا ابعد الناس عن الجندية والعسكرية . وفي المرحلة الاولى من معركة فلسطين بعد دخول الجيوش العربية ، كان التفوق العسكري في جانب العرب ، وزمام المبادرة في ايديهم . وكان اليهود منكمشين على انفسهم وراء تحصيناتهم . ثم كانت هدنة الاسابيع الاربعة . فلما انتهت ، رأينا اليهود يخرجون منها وقد انقلبوا الى قوة مهاجمة ، استطاعت ان تنتزع من ايدي الجيوش العربية اقساماً مهمة من فلسطين . وكانت تنقصهم انواع من الاسلحة الثقيلة ، كسلاح الطيران ، والدبابات ، والمدفعية ، والسلاح البحري . فاذا هي بعد الهدنة متوافرة لديهم .

امام هذه السرعة عند العدو ، لا يجوز ان نبقى على سير السلحفاة ، وان نكتفي بالتطور الطبيعي البطيء الذي يثقله الجمود وتعوقه الرجعية . ان الزمن لا ينتظرنا . والعدو لا يمهلنا . فلابد من الركض والوثوب ، قبل ان تفوتنا القافلة .

لقد اصبحنا وجهاً لوجه امام خطر شديد ، وخصم عنيد ، يطمع فينا ، ويتربص بنا ، ويترقب الفرص لينقض علينا .

بل لو لم يكن امامنا الخطر اليهودي ، فنحن نعيش في عالم لا مكان فيه إلا للقوي . ويداس الضعيف فيه بالاقدام .

كلا هذين الامرين يفرض علينا ان نتلمس نواحي الضعف فينا، وان نعالجها ، وان نستكمل اسباب القوة ووسائلها . لا نقصد القوة العسكرية وحدها . وانما نعني ما تصدر القوة العسكرية عنه. نعني قوة الجماعة في شتى نواحيها .

نحن اقوى

هذا الخطر اليهودي ، على شدته وسوء عواقبه ، مثل كل داء ، لا يعسر القضاء عليه والتخلص منه ، اذا عولج العلاج الحاسم في اوله . وكلما اسرعنا في ذلك كانت المهمة ايسر ، والنتيجة اضمن. ولا تزال قوى اليهود حتى اليوم دون المدى الذي تستطيع ان تبلغه امكانيات العرب . ودون قوى العرب الحاضرة . بشرط أن تكون مجتمعة ومتعاونة ، وان تكون مخلصة في ذلك . نحن اقوى من اليهود . ما في ذلك ريب . وانما ذهبت فلسطين من بين ايدينا رخيصة جداً . لم ندافع عنها دفاع الرجال . وهـذا الذي فعلناه لا يعد دفاعاً عن وطن . انما يكون الدفاع عن الوطن الغالي ثباتاً الى النهاية، واستماتة الى آخر رجل . فكم هي خسائرنا وخسائر جيوشنا من الرجال في معركة فلسطين ؟ . ويقينا ، لو لم تكن في صفوفنا هذه الثغرات ، التي هي من عمل ايدينا ، ومن آثار تخاذلنا واهمالنا ، لما وجد العدو منفذاً ينفذ الى فلسطين منه. ولكانت فرصة العمر للتخلص النهائي من شروره واخطاره ، في الحاضر والمستقبل ، ولاعطاء درس قوي للطامعين .

نحن اكثر من اليهود عدداً ، واشجع محارباً ، واغزر موارد. ونحن ابناء البلاد . ندافع فيها عن عقر الدار ، وتراث الاجيال . وانما تحتاج هذه الكثرة الى جمع حتى تكون عصبة ، والى تعبئة وتجنيد حتى تكون قوة . كما تحتاج هذه الشجاعة الى تدريب ، وهذه الموارد الى استدرار . حتى تجتمع لنا من ذلك كله القوة الساحقة التي لا يستطيع العدو ان يقف امامها .

وانما الخوف اشد الخوف ، ان يترك الخطر حتى يستفحل ، والعدو حتى ينمو ويقوى وتتأصل جذوره ؛ ونبقى نحن على حالنا ، نتعثر في قيود التأخر والجمود ، والتفكك والانقسام .

هذا الشقاق

واول ما يجب علينا فعله ان ننهي أمر هذا الشقاق القائم حول فلسطين .

البيت يحترق ، والعدو في قلب الدار ، ورب البيت صريع ملقى على الارض ؛ واهله يختصمون على الميراث . واي ميراث ؟ ليس هناك غير الاكفان والانقاض !

الواجب الآن التغلب على الازمة . ورأب الصدع . واستعادة وحدة الكلمة ووحدة الصف . فان لم نفعل ، فتلك سبيل الهاوية. وذلك شبح « ملوك الطوائف » . وما اسوأه عهداً ، وأسوأ مغبته ونهايته .

الوحدة العربية

•

وعلى كل حال ، فقد حـــان الوقت لانهاء عهد هذه التجزئة القتالة ، وعهد الدويلات ، قبل ان تدهمنا الطامة الكبرى .

نحن اليوم احوج ما نكون الى القوة والمنعة . والوسيـــلة الطبيعية الاولى لتكوين القوة والمنعة ، هي الاجتماع والتكتل وان نكون عصبة . وما كانت التجزئة لتنتج غير الضعف ، والتخاذل ، فالتنافس ، فالاصطدام ، فالانهيار . وقد مر بنا درس مـــلوك الطوائف في الماضي ، وكان قاسياً . ثم بلوّنا كوارث التجزئة في الحاضر ، وكانت اليمة . وقد آن لنا ان نتعلم ، وان نعتبر .

والامة العربية شديدة الرغبة في النهوض والرقي ، وفي ان تسترد مكانتها التاريخية ، وتتبوأ بين الامم منزلة لائقة بأمة كبيرة ذات مزايا وتاريخ مجيد . لكنها مفككة . وقد انكشف هذا التفكك بوجه خاص في كارثة فلسطين . وتفككها هذا يكوّن العقبة الرئيسية في سبيل نهضتها ورقيها . وهي لن تستطيع ان تسير في طريق النهوض والرقي ، بخطى ثابتة ، دون ان تحقق وحدتها ، وتتخلص من التفكك وما فيه من عوامل التأخر والانحلال . ان الوحدة في كل امة شرط اساسي لكل نهضة صحيحة . هذه الامم

العظيمة المتقدمة التي نعجب بعظمتها ورقيها ، كانت في الماضي ممالك وامارات واقطاعيات صغيرة . وكانت اذ ذاك ضعيفة متأخرة . وهي لم تأخذ طريقها الى الرقي والعظمة الا بعد ان حققت وحدتها . كذلك كان شأن انكلترا ، وفرنسا ، والمانيا ، وايطاليا . بل العرب انفسهم في تاريخهم الاول ، لم يصبحوا امة عظيمة الا بعد ان حققوا الوحدة في بلادهم . ان اعظم الحركات في التاريخ لم يقدر لها ان تقوم الا بعد تمهيد بقيام وحدة . وان الاسكندر ، والرومان ، والعرب ، وصلاح الدين ، وبسمارك ، من ابرز الشواهد على ذلك .

ولقد كان للحركة القومية العربية منذ نشوئها هدفان رئيسيان : تحرير البلاد العربية من الحكم الاجنبي ، وتوحيدها في دولة كبرى واحدة . وكان شعار هذه الحركة مؤلفاً من كلمتين مفردتين : « الاستقلال والوحدة » . وقد ظل هذان الهدفان متلازمين طول مدة النضال للاستقلال . فما أنشد العرب نشيداً الا أشادوا فيه بالحرية وبالوحدة معاً . ولا تقدموا الى جهاد الا تحت رايتيهما معاً . ولا استشهد الشهداء منهم إلا في سبيلهما معاً . حتى أصبح كل منهما مرادفاً للاخر ومتمماً له : الحرية تعني الوحدة . والوحدة تعني الحرية والاستقلال .

كانت « الوحدة العربية » اذن ، في مقدمة اهدافنا القومية ، منذ كانت التجزئة . ننادي بها ونعمل لها . وانما حال بيننا وبينها الاستعمار . وكنا نقاوم التجزئة كما نقاوم الاستعمار نفسه . ونعتبرها مرادفة له . وكنا نقول ان التجزئة من صنع ايدي المستعمرين ، ووسيلتهم الى اضعافنا ، واقتسام بلادنا ، والتمكين

لانفسهم فيها . بل لقد كانت الوحدة احدى غاياتنا من الاستقلال. وكان في جملة ما كنا نطالب بالاستقلال من أجله ، ان نعيد الى الوطن العربي الممزق لحمته ووحدته .

والآن ذهب المستعمرون . وأدركنا احد الهدفين الكبيرين . أفنتخلى عن الهدف الآخر ، ونحرص على ما خلف المستعمرون فينا من تمزيق وتقطيع اوصال ؟ .

لا . ليس في التجزئة مصلحة او نفع خاص لأي قطر من اقطار العرب . انما مصلحتها كلها في الوحدة . ولا يستفيد من التجزئة غير العدو المتربص ، والاجنبي المستعمر . لا يجادل في هذا احد . وانما يتمسك بالتجزئة في كل قطر افراد يفيدون منها منافع خاصة لأنفسهم . ولا يصح وضع المنافع الخاصة فوق الأهداف القومية الكبرى . على ان هؤلاء ايضاً يظهرون الايمان بالوحدة ولا يجهرون بمناوأتها .

حتى هذه الحكومات الاقليمية القائمة على التجزئة . هي ايضاً تقول بالوحدة ولا تنكرها . ألم يكن اركانها ، في الاكثر ، من اركان الحركة القومية الاستقلالية ؟ ألم تكن الوحدة من مبادئهم الاولى ؟؟ . بلى ، وانهم لا ينكرون جهادهم ، ولا يتنكرون لمبادئهم ، ولا يزالون يدينون بالوحدة . غير ان كل حكومة تريد من الوحدة ، الغلبة لنفسها ، والسيادة لنظامها ، والسلطان لرجالها ، والنفوذ لاقليمها ، وان تكون فيها هي المحور والاساس .

واذا كانت الوحدة هدفنا القومي ، وحاجتنا الاولى ، في الأحوال العادية ، وقبل هذه الكارثة ، فان قيمتها لنا اليوم

اعظم ، وحاجتنا اليها الآن اشد . لنواجه بها العدو الألد الذي دخل علينا دارنا ، ولنستطيع بواسطتها ان نحتفظ بالحياة وبالبقاء .

واذا كانت شعوب مؤلفة من قوميات متعددة ، ولغات مختلفة ، قد اجتمعت وتوحدت في دولة واحدة ؛ فكيف بنا ، ونحن امة واحدة ، ولغة واحدة ، ووطن واحد ؟.

هؤلاء البلجيكيون : عنصران ، ولغتان ، ودينان ، ولهم دولة واحدة .

والسويسريون : ثلاث قوميات ، وثلاث لغات . وفيهم وحدة ، ودولة واحدة .

وانكلترا : انها تتألف من عناصر ثلاثة : الانكليز ، والاسكتلنديين ، والويلش . لهم ثلاث لغات ، وكل عنصر منهم يكره الآخر ، وتجمعهم دولة واحدة .

بل اذا كانت الدول الكبرى ، التي تفصل بينها فوارق كثيرة ، من الاجناس ، واللغات ، والاديان ، والمثل ، والاهداف ، والمصالح — دول اوروبا الغربية — تقيم اليوم فيما بينها وحدة تشمل السياسة الخارجية ، والدفاع ، والاقتصاد ، وتصل الى انشاء وزارة مشتركة ، وتأليف مجلس مشترك ، لتدرأ بذلك عن نفسها خطراً تراه ؛ فما بالنا نحن ، والخطر عندنا واقع بالفعل ، والعدو في عقر الدار ؟

نحن بالوحدة اولى ، واليها أحوج .

واخيراً ، لقد أُصبنا في تاريخنا بكارثة شبيهة بكارثتنا اليوم ، وفي نفس الميدان . يوم اجتمعت علينا اوروبا ، في الحروب

الصليبية ، وانتزعت منا فلسطين واقساماً اخرى من بلادنا . لقد تغلبنا عليها اخـــيراً يومذاك . فلنستوح تاريخنا ، ولننظر ماذا فعلنا ، وكيف انتصرنا ؟.

كانت بلادنا مجزأة كما هي اليوم . وقد أوهنت التجزئة قواها ومكنت منها العدو ، كما توهن قوانا وتمكن العدو منا . فكان العمل التمهيدي القوي الذي مهد للنصر ، استعادة الوحـــدة بين اجزاء البلاد . فلما تمت الوحدة ، تلاها النصر .

وهذا ما يجب علينا اليوم ان نفعله .

الجامعـة

لكن ما بال جامعة الدول العربية ؟

نعم . لقد جربنا ايجاد نوع من التعاون والتكتل بانشاء هذه الجامعة . على ان تكون خطوة في سبيل الوحدة العربية . ففشلت التجربة . ولازمنا مع وجود الجامعة كل ما في التجزئة من شرور ومساوىء . وظل العرب فيها يجتمعون ويفترقون على غير وحدة واتفاق . بل لقد انقسموا فيهـــا الى معسكرين متنافسين . ولم تستطع الجامعة ان تزيل من بين دولهـــا اسباب التنافس . بل لعلها ، او لعل وجودها ، كان احد هذه الاسباب .

وبينما أريد من الجامعـــة ان تكون خطوة اوّلية في سبيل الوحـدة ، اذا هي في الواقع تثبت الاقليمية ، وتسند الدويلات والتجزئة . ذلك ان دستورها مبني على المحافظـــة على الاوضاع الراهنة القائمة على التجزئة ، وعلى تثبيت الدويلات .

وفي ظلّ هذه الجامعة نزلت بالعرب كارثة فلسطين ، دون ان تستطيع الجامعة لها دفعاً .

لم تستطع الجامعة اذن ان تحقق للعرب شيئاً من الاهداف التي انشئت لاجلها . وفشلت في مهمتها . وكان سبب ذلك ان رباطها كان واهناً ، وان ميثاقها كان ضعيفاً ، الى منتهى الضعف والوهن. ذلك بانها جامعة دول . وقد احتفظت هذه الدول باستقلالها وسيادتها كاملين . ولم تبق للجامعة نوعاً من السيادة ، ولا قدراً من القوة التنفيذية العملية .

وجوه الوحـــدة

وإذن فليس لنا غير العودة الى الوحدة .

فما هي هذه الوحدة ؟ وكيف نصل اليها ؟ وهل تكون عن طريق التطور والنموّ في جامعة الدول العربية ؟

لئن امكن ان يتم هذا فهو ما ننشده . غير ان الوحدة تستلزم ان تنزل كل واحدة من دول الجامعة عن قدر من استقلالها ومن سيادتها ، او عنهما جميعاً ، لتشترك كلها فيه ، ولتتكوّن من مجموع ذلك ، دولة موحدة مشتركة ، ذات سيادة .

وقد رأينا ان دول الجامعة ، او قسما منها على الاقـــل ، حريصة كل الحرص على الاحتفاظ باستقلالها وسيادتها كاملين . لا تنزل منهما للوحدة عن شيء . والتطور المطلوب لا يتم الا باتفاق هذه الدول كلها عليه . واذن فالوصول الى وحـــدة صحيحة عن طريق التطور في الجامعة ، غير ميسور .

والشأن كذلك في كل مشروع آخر يراد فيه ان تشمل الوحدة الاقطار العربية كلها .

ذلك بان لتحقيق الوحدة في وطن مجزأ سبيلين : الاول سبيل الرضى والاتفاق . فتنزل كل دولة عن استقلالها الخاص طائعة ، وينضم بعضها الى بعض مختارة ، وتؤلف من مجموعها دولة مستقلة واحدة . والسبيل الآخر سبيل الفرض . بان يظهر احد الاجزاء على سائرها ، ويضمها اليه ، طوعاً او كرهاً . قائماً في ذلك بمثل الدور الذي قامت به « بروسيا » في توحيد المانيا . ولطال ما تمنى المفكرون العرب ان تنشأ فينا « بروسيا عربية » فتوحدنا . لكنها لم تنشأ بعد . واذن فالقوة اللازمة لفرض الوحدة فرضاً ، واقرارها ، وحمل الجميع على قبولها ، غير موجودة الآن .

فليس لنا إذن غير سبيل الاقتناع والطواعية .

وقد مرّ بنا ان من الدول العربية من تحرص الحرص كله على استقلالها الخاص . وانها لذلك قليلة الرغبة ، او عديمتها ، في الوحدة .

فاذا اردنا ان نأتي عن طريق الشعوب وإرادتها ، نجد ان بعض هذه الشعوب غير متحمس للوحدة . او غير ذي يد في توجيه حكوماته اليها . في حين ان هناك شعوباً اخرى اكثر تحمساً لها ، ورغبة في تحقيقها . وهي في نفس الوقت اكثر شعوراً بالخطر اليهودي . لاقترابه منها . هذه الشعوب تجد نفسها بين اختيارين : اما ان تقف امام الخطر جامدة حتى يطغى عليها ، واحداً بعد واحد ، ويكون مصيرها مثل مصير فلسطين ، واما ان تفيق وتتحد في وجه الخطر ، لتستطيع دفعه . ان غريزة المحافظة على البقاء توجه هذه الشعوب ، توجيهاً قوياً ، نحو الوحدة .

الهلال الخصيب

•

واذن فلا معدى لنا عن تضييق الدائرة . وهنا يلوح لنا « الهلال الخصيب »[1] . ونجد هنا ان فكرة القومية العربية والاستقلال العربي ، في العهد التركي ، انما نبتت في ارض الشام والعراق . وان فكرة الوحدة العربية بعد ذلك ، في عهد الاستعمار الاوروبي ، انما نشأت وترعرعت على ضفاف بردى ودجلة . وأن السكان في هذين القطرين اكثر فهما للقومية العربية والوحدة العربية ، واشد تحمساً لهما ، وايماناً بهما . وأن اقطار هذا الهلال اكثر استهدافاً للخطر اليهودي ، وتعرضاً لاطماع الصهيونية ومراميها القريبة والبعيدة . وانها لذلك كله ادنى للاجتماع ، واقرب الى الوحدة .

ثم نجد ، ان في ارجاء هذا الهلال الخصيب ميادين واسعة جداً للعمل ، وامكانيات واسعة جداً للنمو والتقدم ، والانشاء والابداع . وانه غني بالمصادر الاساسية للقوة ، بين مادية ومعنوية .

---

(١) يطلق « الهلال الخصيب » على القسم الخصب الهلالي الشكل من جزيرة العرب الذي يقع على اطرافها الشرقية والشمالية والغربية . ويشمل سورية ولبنان وفلسطين وشرق الاردن والعراق .

وأنه في ذلك كل يتمم بعضه بعضاً . وانه على ذلك ، اذا اجتمع وتوحد ، واتيح له الحكم الصالح ، والقيادة الرشيدة ، والتوجيه الحسن ، فهو كفؤ لمواجهة الخطر الداهم ، ولقاء العدو المغير ، كفيل بدفعه ، وانقاذ فلسطين والعرب من شره .

ثم نجد ايضاً ، ان تاريخ الهلال الخصيب . من اول العهد الاسلامي ، يقوم على الوحدة والتماسك بين اجزائه . وان الوحدة هي الاساس وهي الاستمرار في حياته . وانما هذه التجزئة شيء طارىء عليه .

ثم نجد اخيراً ، ان هذا الهلال الخصيب ، هو الذي حمل قديماً رسالة العرب، وقام بالدور الاول في بناء مجدهم ونشر حضارتهم، لما انتظم في سلك ، واجتمع في دولة ، عاصمتها دمشق او بغداد .

فليعد التاريخ نفسه . ولنقنع الآن بوحدة تضم اطراف الهلال الخصيب ، وتكون نواة لوحدة اعم واشمل . ونترك الباب فيها مفتوحاً لدخول من يشاء من الاقطار العربية الاخرى . ثم ندع الباقي للزمن .

• • •

ان هدفنا النهائي في الوحدة ، هو الوحدة العربية الشاملة، التي تضم بلاد العرب كلها . وانما نلجأ الى تضييق الدائرة الآن اضطراراً . لما نحس من ضعف الرغبة في الوحدة الآن ، في الاقطار العربية الاخرى . ولهذا نعود فننبه ثانية الى وجوب اعتبار هذه الوحدة الصغرى نواة للوحدة العربية الكبرى. والى وجوب ترك الباب فيها مفتوحاً للاقطار الباقية ، تلجه حين تشاء.

ونحن نقدر مركز مصر بوجه خاص . والدور الذي قامت به في التاريخ ، في استنقاذ فلسطين . ان مثل ذلك الدور العظيم لا يزال ينتظر مصر . ونحن على يقين بأنها لا بد ان تقوم به .

وإذا تمت وحدة الهلال الخصيب ، فيجب ان تقوم على اساس من التعاون الوثيق مع الاقطار العربية الاخرى ، وخصوصاً مصر ، تعاونا اقوى واوثق مما هو الآن في الجامعة العربية .

ان من ناقلة القول التذكير بانه لا حياة للعرب كلهم بدون الوحدة . وان هذه الوحدة يجب ان تضمهم جميعاً .

مدى الوحدة

فكيف تكون هذه الوحدة ؟ وكيف السبيل اليها ؟ .

هنالك اولاً الوحدة التامة : ان تندمج اقطار الهلال الخصيب وتؤلف منها كلها دولة واحدة . وذلك مثلنا الأعلى في الوحدة .

وفي حالة مثل حالتنا ، وامام خطر كالذي يتهددنا يجب ان نقبل على هذه الوحدة التامة بمحض رغبتنا ، وكامل ارادتنا . ان لم يكن بقرار الدول ، فليكن بقرار الشعوب ، حتى تحمل عليها حكوماتها وتدفعها اليها دفعاً .

فان لم نستطع ، والى ان نستطيع ، فأقل قدر من الوحدة يمكن ان يكون كافياً ، هو ان نعمد الى مصالحنا القومية الكبرى ، فنجمعها في ادارة واحدة ، وتنظيم واحد ؛ ثم يظل كل قطر فيما بعدها ، محتفظاً باستقلاله الداخلي ، وتبقى له

حكومته ونظامه .

هذه المصالح القومية العامة التي نرى وجوب التوحيد فيها ، هي السياسة الخارجيـــة ، والدفاع ، والاقتصاد ، والثقافة ، والعدل ، والاجتماع .

ونود ان ننبه الى ان هذه الوحدة التي ندعو اليها ، ليست تحالفاً او اتحاداً يقوم على الاتفاقات والمعاهدات . وانما هي اشبه بالاتحاد السويسري ، والولايات المتحدة الامريكية . كل ولاية مستقلة في شؤونها الداخلية . لكنها كلها موحّدة في شؤون مشتركة عامة . تقوم عليها حكومة مركزية واحدة .

وعلى هذا ، نريد ان تكون لنا سياسة خارجية واحدة ، تظهر في تمثيل خارجي واحد ، واتصال بالعـــالم الخارجي والسياسة الدولية واحد .

وان تكون لنا سياسة دفاع واحدة . مظهرها قوى دفاعية واحدة : جيش واحد ، وسلاح واحد ، ونظام عسكري واحد ، وطيران واحد ، وبحرية واحدة .

وان تكون لنا سياسة اقتصادية ومالية واحدة . تتمثل في وحدة النقد ، والجمارك ، والضرائب العامة ، والمرافق العامـة ، وسياسة الانتاج والتصدير والاستيراد .

وان تكون لنا سياسة ثقافية واحدة . تقوم على وحدة التعليم في ادارته ، ومدارسه ، وكتبه ، ونظمه ، وبرامجه ، واهدافه .

وان تكون لنا سياسة عدل واحدة . تقوم على وحدة القضاء في ادارته ، وشرائعه ، ونظمه ، ومحاكمه .

وان تكون لنا سياسة اجتماعية واحدة . تقوم على وحـــدة النظم والاهداف الاجتماعية .

وان توحد هذه الشؤون كلها في حكومة مركزية واحـدة ، تمثل الهلال الخصيب كله . وتكون ذات سلطة وسيادة . ولها قوة تنفيذية . وتكون مسؤولة امام مجلس منتخب يمثل البـلاد كلها . وتلك حكومة الوحدة او الاتحاد .

ونودّ ان ننبه ايضاً ، الى ان هذه الوحدة ينبغي ان تقوم على اساس من المساواة التامة بين الاقطار الداخلة فيهـا . فلا يفرض عليها سلفاً نظـام معين او شكل خاص من اشكال الحكم . بل يترك اختيار ذلك الى الشعب ، بعد اقرار الوحدة .

وذلك في رأينا هو الحد الادنى لوحـدة متماسكة ، يمكن ان تنشأ عنها قوة ومنعة ، وان تكون ذات قيمة وأثر .

• • •

فأما السبيل الى تحقيقها ، فهو السبيل الدستوري : ان تقوم في اقطار هذا الهلال جماعات مؤمنة بفكرة الوحدة . يتصل بعضهـا ببعض . وتعمل معاً لنشر الفكرة ، وتكوين رأي عـــام قوي متشبع بها في كل قطر ، يلح في المطالبة بتحقيقها ، ويجعلها شرطاً في تأييد كل نائب ، وكل وزارة ، الى ان تقررها المجالس النيابية ، وتحققها الحكومات .

او يقوم فيه رسول للوحدة . يحمل لواءها . ويدعو اليهـا . ويجمع الناس عليها . ويذلل ما يعترض سبيلها . حـتى يوفق الى تحقيقهـا .

لبنان

ولبنان . انه قطعة من الهلال الخصيب ، وعضو طبيعي فيه . واذا تكوّنت وحدة من اقطار الهلال ، فلا يستطيع لبنان ان يقف منهـــا بمعزل . ان ذلك ليس في صالحه . ووحدة الهلال الخصيب ينبغي ان تكون شاملة . غير ان للبنان حالة خاصة تقتضي ان يكون له مركز خاص . فليعترف له بهذا المركز . وفي مقابل ذلك ينبغي ان يوافق لبنان راضياً عـــلى ان يكون التعاون في الهلال الخصيب اكثر ، والرباط اوثق ، مما هو في الجامعة العربية . الامر الذي ينسجم مع طبيعة الواقع في حياته العملية .

الحواجز

ورب سائل : ما شأن هذه الابعاد والمسافات الشاسعة التي تباعد بين اطراف الهلال الخصيب . وهذه الضحراء الواسعة التي تفصل بين اقطاره . وهذا التفاوت في مستوى الحضارة بـــين اقاليمه ، والتعدد في المذاهب والطوائف بين سكانه ؟ وهل تحول هذه الابعاد والحواجز والفروق فيه دون الاجتماع والوحدة ؟ .

فأما المسافات فلم تعد اليوم ذات شأن . لقد قصّرتها وقرّبتها كثيراً وسائل المواصلات الحديثة . وصارت بغـــداد اقرب الى دمشق مما كانت تبعد عنها في القديم حلب وحماة وحمص وبيروت . واذا كانت هذه الابعاد نفسها لم تحل دون الوحدة في عصر الجمل ، فأولى ان لا تحول في عصر القطار والسيارة والطائرة . على ان الابعـــاد عندنا تعد قصيرة بالنسبة الى ما في الولايات المتحدة

الامريكية منها . بين شرقها وعربها . وهي لم تحل دون الوحدة هناك .

واما الصحراء فليست حاجزاً . هذه استراليا تتوسطها صحراء واسعة ينتشر العمران على اطرافها . وهي قارة كاملة . ومع هذا فالوحدة فيها حقيقة واقعة . ثم ان العلم لا بد ان يتغلب في النهاية على الصحراء . وقد تم له حتى الآن إخضاع الابعاد فيها والمسافات . وبدت طلائعه في العمران . ان هذه الواحات النضرة على طريق بغداد ، والمدينة العصرية العامرة في الظهران ، امثلة على الامكانيات التي تستطيع وسائل العلم الحديث ان تحققها في الصحراء . ولنذكر ان العالم يقف اليوم على عتبة عصر الذرة . وينتظر عجائبه ومعجزاته . وليس بعيداً على كل حال ان يأتي يوم يمكن فيه قلب هذه الصحراء الى جنّات عامرة . وان تصبح معيناً لا ينضب ، ومخزناً هائلاً لا يفرغ . وها نحن اولاء نشاهد هذا التنافس الشديد على صحراء النقب في فلسطين ، لما يقدّر فيها من ثروات وكنوز .

ان مصير الصحراء ان تكون لنا مصدر مدد وقوة ، لا عامل ضعف وتجزئة . كما كانت ، في نواحي اخرى منها ، مصدر قوّة لاجدادنا في القديم .

واما التفاوت في مستوى الحضارة ، فهو لا يباعد بين الاخوة . بل ان من شأنه ان يحمل السابق على الاخذ بيد اللاحق . وليس الفرق بعيداً على كل حال . وقد يكون التفاوت بين بعض الولايات الامريكية اكثر ، اذا اعتبرنا اعلى مستوى هناك .

وكذلك تعدد المذاهب والطوائف . انه غير خطير . ومعظم هذه المذاهب المتعددة يرجع الى دين واحد ، هو دين الكثرة الكبرى في الهلال كله . ومهما يكن ، فان انتشار العلم ، والتربية القومية ، كفيلان بتضييق هذه الفروق كلها ، وازالتهـــا ، في الناحيتين .

وحسبنا في كل حال ، ان تاريخ الهلال الخصيب يقوم عـــلى لوحدة . وانها هي الاصل والسير الطبيعي في مجرى حياته . هذا الى انها حاجة له لا بد منها .

٨ ٩

التجديـــد

•

لكن هذه الوحدة لا تكفي وحدها . بل لا بد من تجديد اساسي شامل يتناول كل ناحية من نواحي الحياة العربية والتفكير العربي . ويشمل السياسة الداخلية والسياسة الخارجية معاً . ان تحقيق الوحدة هو بعض نواحي هذا التجديد الذي ننشده .

وفي هذا العالم المتشابك ، وهذا العصر المتحضر ، لا يستطيع شعب ان يعيش في عزلة بعيداً عن التقدم العام وعن التطور العالمي. ولا تقدر دولة متأخرة على الوقوف في المعترك بين الدول المتقدمة. ولا يقوى الجهـــل على الصمود امام العلم ، ولا الفوضى امام النظام . وقد رأينا بأعيننا كيف لم تقدر دول العرب وهي سبع ، تعد عشرات الملايين ، على رد عـدوان اليهود ، ولم تكد البيضـــة تنقف عن دولتهم ، وهم لا يزالون دون المليون الواحد عدّاً .

التجديد في الحكم

ولئن تمت لنا الوحدة ، وبقي جهاز الحكم في مستواه الحالي ، فانه يسير في نفس الطريق التي لا يعرف غيرهـــا . ويعيد نفس

الاخطاء التي وقع فيها. ويوصل الى نفس النتائج التي اوصلنا اليها .

والآن بوجه خاص ، بعد ان وضع اليهود اقدامهم في قلب بلادنا ، ونشأت لهم بيننا شوكة ، وأصبح خطرهم مجسماً ، لا يجوز ان يظل مستوى الحكم فينا على حاله. ان هذا المستوى من الحكم لا يستطيع ان يمدنا بالقوّة التي نحن في حاجة اليها لمواجهة الخطر الشديد المقترب ، وهو هو الذي اضاع فلسطين . انـــه لا يملك عناصر القوّة حتى يمدنا بها . وفاقد الشيء لا يعطيه .

لا بدّ اذن من تجديد في الحكم ، ورفع لمستواه، حتى يكون صالحـــاً لقيادة الشعب ، قادرا على النهوض به ، واقالة عثاره ، وامداده بعناصر القوّة ، ودفع الأخطار عنه .

وليس الذي يعنينا من التجديد شكل الحكم ولونه . بل لبابه وجوهره وأهدافه .

أيكون الحكم جمهورياً أم ملكياً ؟ ليس هذا هو المهم . في العالم ملكيات وجمهوريات اصابت نجاحاً كبيراً . وفيه ملكيات وجمهوريات متأخرة . انما المهم أسس الحكم التي يقوم عليها . هو عنصر الصلاح في نظامه ، والكفاية في جهازه ، والتقدم والسمو في اهدافه .

والعناصر الأساسية التي يجب ان تتوافر في الحكم حتى يكون صالحاً ، هي ان يكون دستورياً . لا يكون ذلك فيـــه اسمياً وشكلياً ، بل يكون صحيحاً حقيقياً . وان يقام على أسس علمية صحيحة ، سواء في نظمه وفي ادارته وجهازه . وان تجنّد فيه احسن الكفايات . وان يكون تقدمياً في روحه واهدافه. يعيش

في عصره، ويسير في قافلة الحضارة. وان يكون لخير الشعب كله. لا لطبقة خاصة او فئة معينة . ليجاري التقدّم العالمي، وليستطيع ان يقدّم الى الشعب ما يحتاج اليه من رقيّ ويسر ، والى الوطن ما يطلب من سلامة وقوة ومنعة .

السياسة الخارجية

اما في ميدان السياسة الخارجية ، فأن العوامل الرئيسية التي تملي سياستنا الخارجية الآن ، لا تعدو في الغالب ثلاثة اشيـــاء : الاول ، هذه الخرافة القائمة حول « الصداقة التقليدية » بين العرب والانكليز. وما هي في الواقع غير استمرار لتأثير الحكم الاجنبي، وخداع للنفس فيه . ان الطرف الآخر ـ الانكليز ـ لايصدر في تحديد علاقاته بنا عن وحي شيء يدعى « صداقة تقليدية » وانما يصدر عن وحي مصلحته وحدها . كما تفعل كل امة رشيدة.

العامل الثاني : العاطفة . فقد يبدو ميل الى اتجاه معين لمجرد كونه معادياً للانكليز . او قد تثور نفرة من تعامل معين لمجرد الانسياق مع تيار العاطفة . وهذا ايضاً من آثار ما خلّف الحكم الاجنبي . لكنه هنا أثر المرارة والألم في النفس العربية .

العامل الثالث : التأثر ببعض الحركات العالمية الكبرى ، وما فيها من بريق واغراء .

وقد حان الوقت لأن نضع سياستنا الخارجية على اساس قومي رشيد. غير الصداقة التقليدية الخرافية، والتيارات العاطفية الجامحة، والحركات العالمية البرّاقة . اساس « المصلحة القومية » وحدهـا .

المحالفـــات

ومن مواضيع الساعة في سياستنا الخارجية ، المحالفات . فقد يرى قوم أن نتقي هذا الخطر اليهودي بواسطة التحالف مع دولة اجنبية قوية . لكن درس فلسطين جـــدير ان يكون قدعلّمنا شيئاً . فمن هو الذي اوجد الخطر اليهودي ، وربّاه في حجره ، ومدّ له من جناحه ، وبسط له من ظله ، وتولاه بالرعاية والحماية حتى قوي واشتد وصار خطراً ؟ . من هو الذي فتح لليهود ابواب فلسطين ، ومكن لهم فيها ،ثم أطعمهم اياها لقمة سائغة ؟. ان الذي فعل بنا اليوم هذا ، لا يؤمن ان يعيد الكرّة غداً ، ويتآمر على قطعة اخرى من وطننا . وليس الامريكيون ولا الروس بأفضل في هذا من الانـكليز . وقد رأينا حظوة اليهود عنـــد الاولين ، وتأييدهم من قبل الآخرين . ليس لنا ان نعتمد في حماية انفسنا ووطننا على اجنبي . انما الاجنبي طالب صيد . وانما ينبغي ان يكون اعتمادنا الاول في اتقاء الخطر على انفسنا .

على اننا لا نقول بالعزلة . فنحن نعيش في عالم متشابك لا غنى فيه عن الاخذ والعطاء . ونحن نحتل من هذا العالم مركزاً وسطـاً لا سبيل الى العزلة فيه . ونحن في حاجة الى صـــديق نركن الى صداقته . ولا بد لنا من تنظيم هذا التعامل أخذاً وعطاء .

لكن ليس هذا بالظرف المناسب للتحالف . لقد مرّ ظرف ، قبل وقوع الكارثة ، كان مناسباً ، فأضعناه . فعلينـا ان ننتظر الآن . لقد سقطت اسهمنا بعـد ان افتضحنا في معركة فلسطين .

والتحالف بين قوي وضعيف انما يكون تنفيذه استغلالاً من جانب واحد . وشرّ من ذلك اننا نخشى ان يحول التحالف بيننا وبين التكتل والاجتماع الصحيحين ، ويسد علينا السبيل الى الوحدة . والوحدة لنا اليوم حاجة الساعة ، وضرورة الظرف ، وصخرة النجاة . وان يسند اوضاع الحكم القائمة ، بما فيها من تجزئة وفساد ، ويعوق سعينا الى الاصلاح والتجديد . ولسنا ننسى اثر الاجنبي فينا وهو منتدب . وانه هو الذي رمانا بهذه التجزئة وهذا التمزيق .

ليس من صالحنا اذن ان نسعى الى التحالف الآن فرادى ، ونحن على تجزئة تصلح لان يستغلها الاجنبي الى ابعد حد . ولكن لنبدأ بالوحدة . حتى اذا قام بناؤها ، وشعرنا بقوة الجماعة ، فحينئذ يمكن ان نطمئن الى تحالف عادل ، لا نكون فيه اتباعاً ، بل نأخذ ونعطي . ويومئذ نصبح في مركز يخطب فيه الآخرون ودّنا . ونستطيع فيه ان نختار الحليف ، على اساس المصلحة المتبادلة ، وان نركن الى صداقته وحلفه .

الشعب

وهذا الشعب الطيب الاعراق ، النقي المعدن ، الذي تقعد به آثار العصور . انه مصدر القوة التي ننشدها . ولا تصدر القوة عن شعب ضعيف . لا تكفينا الوحدة والتجديد في الحكم حتى ينطويا على العناية بالشعب وامداده بعناصر القوة الاولية ، لتنعكس القوة عنه الى الدولة والى الوطن . يجب ان تؤدّى الى الشعب حقوقه كاملة ، مثلما تفرض عليه الواجبات . وان يعوّد على الاهتمام اكثر فأكثر بشؤونه القومية العامة ، والاشتراك الفعلي في ادارتها ، والاشراف عليها . حتى تصبح له رقابة نافذة ، تضمن وضع الامور في نصابها .

حقوق الشعب وواجباته

١ ـ اصول حقوق الشعب واهميتها

ان تعريف حقوق الشعب أمر على أعظم جانب من الخطورة بالنسبة لأية أمة . لان هذا التعريف يقرر نوع النظام السياسي والاجتماعي الذي تريد الأمة ان تحققه لنفسها . فما النظام السياسي والاجتماعي سوى الجهاز الذي يمكن الشعب من ممارسة ما اتفق

عليه من الحقوق . وكل نظام سياسي واجتماعي يحمل في ثناياه فهما معينا لهذه الحقوق ، وان لم يتحدث عن ذلك بصراحة .

وكما ان النظام السياسي والاجتماعي يرتكز الى فهم معين لحقوق الشعب ، فكذلك حقوق الشعب ترتكز الى فهم معين لطبيعة الانسان وغايته في الحياة ، ولطبيعة المجتمع وعلاقته بالفرد. هل الانسان حر ؟ هل الناس متساوون ؟ هل يؤثر العوز المادي في كرامة الانسان ويمنعه من ممارسة حريته ؟ هل المبادىء الأخلاقية التي تطبق على الفرد يجب ان تطبق ايضاً على المجتمع ؟ هل واجب الفرد ان يذوب في المجتمع ويتنازل في سبيل مصلحته عن شخصيته وآرائه ؟ ام هل واجب المجتمع ان يعمل على المحافظة على الاستقلال لافراده في الرأي والشخصية ، وان ينمي هـذا الاستقلال ؟ . هذه وسواها أسئلة على جوابها يتوقف تعريفنا لحقوق الشعب . فليس غريباً اذن ان نرى الدول مختلفة كل الاختلاف في فهمها لحقوق الشعب ، وفي ترتيبها هذه الحقوق من حيث الاهمية .

ولئن اختلفت الدول في تعريفها حقوق الشعب، تبعاً لاختلافها في فهم طبيعة البشر وغاية الانسان في الحياة ، فانها جميعها متفقة على شيء واحد : ان للشعب حقوقاً يجب ان تؤمن وتصان ، وان واجب الحكم وهدفه هو تأمين هذه الحقوق وصيانتها .

اما نحن ففي ظروفنا الحاضرة لم نصل الى هـذه النتيجة الاولية . فليس غريباً اذن ان نكون بعيدين عن محاولة تعريف حقوق الشعب .

على ان لحقوق الشعب ناحية اخرى مهمة غير ناحيتها الانسانية المجردة . ذلك انها مرتبطة ارتباطاً كلياً بكيان الامة وبقائها . وهذا الارتباط يظهر جلياً واضحاً في اوقات الشدة والاخطار . فالشعب الذي لم يعرف لنفسه حقاً شعب عاجز عن النضال من أجل كيانه ، فلا يلبث ان ينهار امام اول ضربة توجه اليه . فالحقوق منها ما هو متصل اتصالاً ماديا مباشراً في مقدرة الشعب على النضال الحربي . كحق الشعب في ان يعتنى بصحته وصحة نسله . فان اهمل هذا الحق كان ابناء الشعب مرضى ، ضعاف البنية ، غير قادرين على تحمل المشاق ، وبالتالي غير صالحين للحرب . فما بالك في ان الكثرة العظمى من الشعب العربي لاتصلح للخدمة العسكرية لضعف صحتها ولتفشي الأمراض فيها .

ومن حقوق الشعب ما يتصل اتصالاً معنوياً برغبة الشعب في النضال وفي ابقاء ذاته وحريته . كحق الشعب في ان يتعلم . إذ كيف يناضل من اجل امته شعب لا يعرف معظم افراده معنى الامة ؟ اليست سير الابطال والشهداء من اعظم الحوافز على شحذ الهمم ؟ فما بالك بشعب لم يسمع عن سير ابطاله وأعمال شهدائه ؟ ثم ان المثل التي يرتكز عليها دافع النضال ، كالواجب والحرية والتضحية ، كلها مثل يتلقنها المرء بالتعليم والاحتذاء . فكيف يؤمن بها ايماناً حقيقياً عميقاً من لم يتلقنها في المدرسة ، ولم يرها متمثلة في اشخاص احياء ؟

ولكن ليس هذا الارتباط المباشر بين الحقوق ورغبة الامة في النضال بالارتباط الوحيد ، بل ليس هو اهم ارتباط بينهما .

فالشعب في اشد الحاجة الى اسطورة تملأ وعيه وخياله . اسطورة يحلم بها في اوقات الهدوء واوقات الاضطراب . لانها تجعل لحياته معنى ، وتعطيه امام نفسه وامام غيره كرامة وحرية . ولئن فشلت القومية العربية حتى الآن في التغلغل الى اعماق الشعب العربي ، وفي الانتشار بين جميع طبقاته ، وبقيت عقيدة فئة معينة منه ، هي الفئة المتعلمة ، فلأنها بشكلها الحالي صعبة المنال . لا تفهم الا بتعليم متقدم . ولأنها الى الآن تكاد تكون قومية شكلية جوفاء يجد ابن الشعب صعوبة في فهم اثرها في حياته وفي كيانه .

ان اعظم حافز للنضال هو ذلك الذي يشعر به الانسان امام مرأى « السعادة المفقودة والتعاسة الابدية » فاين هي تلك السعادة التي نستطيع ان نستحث الشعب العربي للنضال من اجل استبقائها؟ أيكفي لاستنهاض همة الانسان ان نقول له : حارب لانك اذا لم تحارب فستزداد تعاستك ؟ انه لن يصدق هذا القول . لان كل تعيس يعتقد انه وصل القاع تعاسة . وهبه صدق ، فقد تنشأ بينه طبقة ترضى بزيادة التعاسة لنفسها لكي تجر الى الشقاء اولئك الذين حرموها من حقوقها وفرضوا التعاسة عليها . وستجد في عملها الهدام هذا لذة تعوض عن ألمها المكبوت . ناسية بالطبع انها بذلك لا تهدم طبقة ، ولكنها تهدم أمة باجمعها .

لقد شاهدنا الامم الراقية ، كلما احدقت بها الاخطار ، لوحت لشعوبها بالمزيد من الحقوق . وجعلت من هذا التلويح اسطورة تحفزها للاستماتة في سبيل النصر . فها هو الشعب البريطاني ، وهو شعب يتمتع بقسط وافر من الحقوق ، ومستوى عال من الاخلاق

والفهم والتعليم ، حينما احدقت به الأخطار ، وألمت به المصائب ، فهزم جيشه في القارة الاوروبية سنة ١٩٤٠ ، وسحق حلفاؤه وأخرجوا من الحرب ، واضحى في الميدان وحيداً ، لم يكتف زعماؤه لاستنهاض همته بان يخبروه بانه سيخسر ما عنده اذا ما هزم ، وهو كثير ، بل اخذوا يبنون له اسطورة مما سيكون عليه اذا ما انتصر . اخذوا يتحدثون في وسط الهزيمة والخراب عن مشاريع ما بعد الحرب ، عن الانشاء والبناء . وانتهى بهم الامر الى خلق اسطورة « التأمين الاجتماعي » والى اقرار مبدئها عملياً في البرلمان ، رغم فداحة ما تطلبه من التكاليف . لماذا ؟ لكي يزيدوا من كرامة الشعب وحريته ، فيزداد فهماً لمعنى « السعادة المفقودة والتعاسة الابدية » ويستميت من اجل النصر . وكان نصر . ومثل ذلك الشعب الالماني ، لوح له زعماؤه بالنظام الجديد ، فاستمات من اجل النظام الجديد . ولئن هزم فان هزيمته اسطورة بطولة ستحفزه على النهوض واسترداد مكانه في العالم .

اما شعبنا فلا نحن قادرون على استنهاضه بما سيخسر ، ولا نعطيه شيئاً يفقده عند الهزيمة ، ولا نلوح له بالعالم الذي يستطيع ان يحققه ويبنيه لنفسه . هو شعب ليس له اسطورة من اجلها يعيش افراده ، وفي سبيلها يموت شهداؤه .

• • •

هذه لحظة حاسمة من لحظات تاريخنا . بقاؤنا فيها كأمة مهدد تهديداً قوياً . فامامنا اليوم منطقياً ثلاث امكانيات : اما ان نصاب بالهزيمة تلو الهزيمة ، ونفقد القطعة تلو القطعة ، من وطننا العزيز ، حتى

نصبح آخر الامر ولا وطن لنا ، وينتهي وجودنا كأمة – اذا ما بقي لنا وجود – ونعتبر كمخلوقات بشرية متأخرة ، لا كيان ولا كرامة ولا حق لها ، تعامل كما يعامل الزنوج في اتحـــاد جنوبي افريقيا او في امريكا . واما ان تزول قوميتنا العربية ، وحريتنا السياسية ، ويندمج وجودنا في وجود اكبر ، وتذوب شخصيتنا في شخصية اوسع واعم ، ونصبح شبحاً ليس له وجود حقيقي : جمهورية او جمهوريات سوفيتية في دولة شيوعية كبيرة . واما ان نفيق الى انفسنا فنستميت من اجل حريتنا واستقلال شخصيتنا . او بكلمة اخرى ، نستميت في سبيل بناء عالمنا الخاص المستمد من مثلنا واحلامنا ، ومن تاريخنا وآلامنا وامكانياتنا .

ان كل خطوة نخطوها يحمل في طياتها قرارنا في الاختيار بين هذه الامكانيات الثلاث . ونحن كقوميين عرب نربأ بقومنا عن الذل والهزيمة . ولا نريد لأمتنا ان تذوب فتصبح شبحاً ليس له وجود حقيقي . ونؤمن بالشعب وامكانياته . ونعمل لحريتـــه الحقيقية . نؤمن بان الشعب العربي يجب ان يحيـا حياته لا حياة غيره . يجب ان يبني عالمه الخاص . ولذلك نرى من واجبنا تعريف هذا العالم ، والعمل بعد ذلك من اجل تحقيقه .

ونحن حينما نتكلم عن حقوق الشعب فلسنا نتكلم بتلك الروح المستهترة الـتي تعود شعبنا ان يسمعها من قـــادته والمسؤولين من رجاله . إنما نتكلم عن حقوق الشعب بخشوع عميق مستمد من ايمـــاننا الكلي بهذه الحقوق ، ورغبتنا في ان نراها متحققة في حياته . واننا نعلم ان الشعب لن يؤمن باسطورة الا اذا رأى

بشائر ارتباطها بالواقع . لانه تعب من الكلام الاجوف ، والاماني الخادعة . بل نشعر بان ضجره المحق هذا هو من المظاهر المقلقة التي يجب ان تعالج بالطريقة الوحيدة التي يمكن ان تثمر فيها المعالجة ، بحصول الشعب على حقوقه . فما هي هذه الحقوق ؟ .

٢ ـ ما هي حقوق الشعب

أ ـ الحرية

ان اول حقوق الشعب واقدسها هو الحرية بمعناها الواسع ، الحرية من الاستعباد الخارجي والاستعباد الداخلي ، الحرية بانواعها المجردة ، كحرية العقيدة ، والكلام ، والكتابة . وانواعها السياسية ، كحرية التكتل السياسي ، والانتخاب . وانواعها المادية ، كالحرية من الفاقة والعوز . وكل الاوضاع والنظم التي تتنافى مع اي من هذه الحريات يجب ازالتها . كما يجب انشاء الاجهزة التي تؤمن وجود هذه الحريات ، ثم بقاءها واستمرارها .

فلتأمين الحرية من الاستعمار الخارجي لا يكفي التهويش الاجوف وتوجيه الكلام الحماسي . بل يجب اولاً تأمين تعاون جميع طبقات الامة تعاوناً مستميتاً في هذا السبيل . وثانياً تعبئة كل القوى المادية والمعنوية ، وايجاد التنظيم الدقيق والاجهزة الفعالة لتأدية هذا الواجب . ان استحثاث الشعب للتضحية والقتال ، وتركه دون تنظيم فعال ، وحرمانه من الوسائل المادية اللازمة للقتال ، يخلق في نفسه مرارة ، ويصيب معنوياته اصابة كبيرة تشل حركته .

اما في الحقل الداخلي ، فان حريات الشعب ضرورية للمحافظة على معنوياته و كرامته . فلا يجوز ان يسجن انسان بغير ذنب وبغير الطرق القانونية . ويجب الغاء الرقابة على الصحف والتوقف عن اضطهاد اصحاب الرأي الحر الذين يعملون للحقيقة . والدول العريقة في الحرية لا تعرف قوانين الرقابة . فيستطيع كل امريء أن يقول ما يريد على شرطين ، ان اخل باحدهما فانه يفعل ذلك على مسؤوليته : ان لا يمس المصالح القومية العليا الحقيقية ، وان لا يتهجم على الافراد ويطعن في سمعتهم الشخصية . وله فيما عدا ذلك ان يعتقد ويقول ما يشاء .

ويجب أن ينتهي ايضاً عهد تدخل الحكومات في الحريات السياسية . فلا يكون بقاء الاحزاب السياسية رهناً بنزوات الحكم وشهوات الحكام . ولا تمنع جماعة من ايجاد التكتل السياسي الذي تريده . ولا تضطهد جماعة لآرائها السياسية ، ما دامت تحافظ على دستور البلاد ولا تخل بالامن العام .

ولا شك في ان الفقر المادي الذي يعانيه القسم الاعظم من شعبنا ، والتفاوت العظيم في الثروة بين القلة المترفة وسائر افراد الشعب ، من الامور التي تصيب معنويات الشعب في الصميم ، ومن الثغرات التي يستطيع التسلل منها كل اجنبي مخادع . فلابد اذن من عمل جدي حاسم يشعر الشعب باثره الواضح في حياته . يهدف الى رفع مستوى المعيشة بين افراد الشعب ، والى تأمين حد ادنى لمستوى المعيشة بينه .

ب ــ المساواة

ان المساواة ، كالحرية، متصلة اوثق الاتصال بكرامة الناس . فمن لم يشعر بحريته او بالمساواة الحقيقية بينه وبين سائر الناس ، يفقد الكثير من كرامته . وان شعباً يفقد معظم افراده الشعور العميق بالكرامة ، وبالثقة المستمدة من هذه الكرامة ، لهو شعب ضعيف غير متماسك .

فيجب اذن تحويل المساواة الشكلية امام القانون الى مساواة حقيقية ، لا امام القانون وحده ، بل في كافة نواحي الحياة . يجب ان يشعر الناس بالمساواة الاجتماعية ، والمساواة في الاحترام والمعاملة ، والمساواة في فرص العمل والتعليم .

ج ــ العمل

من حق كل فرد من افراد المجتمع ان يعمل . ومن واجب الحكومة ان توجد له العمل الذي يناسبه . فأن كان فلاحاً فعلى الحكومة ان تعطيه من ارضها قطعة تكفيه وتكفي عائلته . وان توفر له اسباب استغلالها . وان كان عاملاً صناعياً فواجب الحكومة ان توجد له العمل الصناعي المناسب .

د ــ التأمين الاجتماعي

لما كان العمل حقاً من الحقوق التي للشعب تجاه حكومته ، لذلك اذا فقد امرؤ عمله ولم تستطع الحكومة ايجاد عمل له ، فواجبها ان تؤمن له دخلاً مناسباً يكفيه ويكفي عائلته ، الى ان

تجد له عملاً آخر .

اما الحالات التي يعجز فيها الانسان عن العمل ، اما بسبب المرض ، او وجود عاهة مانعة عن العمل ، او بسبب الكبر والشيخوخة ؛ فواجب الحكومة ان تنظم صندوقاً يساهم فيه العمال واصحاب الاعمال والحكومة ، ويكون هذا الصندوق مسؤولاً عن تأمين حياة مثل هؤلاء الاشخاص ورفاهيتهم .

٥ ـ الخدمات الاجتماعية

اذا اعيدت لكل من الفلاح والعامل كرامته ، وزيد دخله ، وحفظ حقه ، فانه مع ذلك سيبقى عاجزاً عن القيام لنفسه بكثير من الامور التي يحتاجها . واذا تمكن من القيام ببعضها ، فعلى حساب مستواه المعيشي البسيط ، وبشكل غير كاف . فمن حقه اذن ان تؤمن له الحكومة هذه الخدمات مجاناً .

واول هذه الخدمات واهمها التعليم . لارتباطه بكل ناحية من نواحي الانسان ، مادية ومعنوية . فعلى الحكومة ان تؤمن التعليم الابتدائي لجميع افراد الشعب ، رجالاً ونساء ، وتجعله اجبارياً . اما التعليم الثانوي والمهني والجامعي ، فيكون مجانياً ومفتوحاً لجميع ابناء الشعب على السواء ، ووافياً بحاجات كل امرىء يريد ان ينال مثل هذا التعليم .

ومن حق الشعب ان ينال عناية صحية جيدة . وان تيسر للفرد جميع وسائل الوقاية والعلاج منذ ان يصبح جنيناً حتى وفاته . ويجب ان تكون هذه الوسائل منتشرة في المدن والقرى ، وموزعة

بالعدل بين السكان . ولما كانت احوال السكن من اهم اسباب التأخر الصحي ، فعلى الحكومة ان تقوم بالمشاريع الواسعة لتحسين احوال السكن بين العمال والفلاحين . وعليها ان تقضي على مصادر الامراض . وان تعالج الامراض السارية معالجة جبرية . وان تتخذ كل الاجراآت اللازمة ليأتي الجيل الجديد جيلاً قوياً صحيحاً .

ومن حق الشعب ان توجد المؤسسات للعناية بأطفاله ، والملاجىء لتربية الايتام منهم ، وان تيسر له الوسائل التي تزيد حياته ثروة ، كالرياضة .

و — حقوق المرأة

في جميع هذه الحقوق والواجبات يجب ان تكون المرأة مساوية للرجل ، حتى تستطيع المساهمة في تكوين هذا المجتمع العربي الجديد .

٣ — هل يجوز تأجيل المطالبة بهذه الحقوق

رب معترض يقول : ان الكلام عن حقوق الشعب في هذه الآونة امر يتعارض مع الامر الواقع . فالازمة تتطلب حكومة قوية . والحكومة القوية تتعارض مع الحريات الواسعة التي تطالبون بها . والخدمات الاجتماعية تحتاج الى تكاليف باهظة لا تستطيع تأمينها حكومة فقيرة مرهقة بواجبات الدفاع القومي . وفي هذا القول شيء من الصحة . ولكنه يخفي في طياته خطأ كبيراً . فان

تنازل الشعب عن شيء من حريته في سبيل حرية اعظم ، وعن بعض حقوقه في سبيل حق اسمى ، وعن جزء من حاجاته المادية في سبيل اهدافه الكبرى ، وقبوله بالشظف اليوم في سبيل الراحة في المستقبل – هذه كلها شيء ، وحرمانه من حقوقه قهراً ، بل عدم الاعتراف له اعترافاً تاماً بهذه الحقوق ، شيء آخر .

فنحن بالفعل نحتاج الى حكومة قوية . شأننا في ذلك شأن كل امة تمر في ازمة عاصفة ، مهما بلغ تطورها ورقيها ، ومهما بلغت كثافة تراثها الديموقراطي الصحيح. ولكن الحكومة التي تستطيع ان تكون قوية حقاً ، هي الحكومة المنبثقة من صميم الشعب ، المعترفه بكرامته ،العاملة على صيانة كيانه وحريته ، المؤمنة بجميع حقوقه ، العاملة باخلاص على وصوله الى هذه الحقوق بأكملها . مثل هذه الحكومة يوليها الشعب ثقته ومحبته . ويسير وراءها . ويصدقها في تصويرها لموقفه وحاجاته . ويقبل ما تفرضه عليه من قيود في سبيل اهدافه ومصلحته .

ومثل الحريات ، الحقوق المادية . فقد رأينا شعوباً راقية كثيرة تقبل التنازل ، بطيبة خاطر ، عن جانب من حاجاتها المادية ، لكي تعمل للمحافظة على مركزها وهيبتها. فها هي روسيا التي تنادي بالشيوعية ، المبنية على رفاهية العامل وابن الشعب ، طلبت من هذا العامل ان يؤجل امر رفاهيته في سبيل بناء جهاز دفاعي ، من جهة ، وفي سبيل بناء نظام آلي يزيد الانتاج في المستقبل على حساب الاستهلاك في الحاضر ، من جهة أخرى . فقبل العامل ذلك ، وعمل جاداً في سبيل تحقيق الهدفين . فكان

لروسيا صناعة حربية مكنتها من هزيمة المانيـــا ، وصناعة سلمية مكنتها من الاستغناء عن انتاج الدول الغربية الصناعي . وها هي بريطانيا تطلب من شعبها التضحيات المادية تلو التضحيات. والشعب يتقبل ذلك راضياً . لـكي تستطيع بريطانيا تنظيم اقتصادياتها ، بعد ان اصابتها الحرب بتدمير غير قليل ، وبعد ان استنزفت هـــذه الحرب كثيراً من مواردها . ولكن هذه الامثلة وأشباهها شيء ، وان يفرض بقاء الفقر والعوز المادي على الشعب دون هـــدف سوى ابقـــاء الفروق الطبقية والتباين في الثروات ، شيء آخر . وصحيح ان الخدمات الاجتماعيه تتطلب كثيراً من النفقات . وان هذه الخدمات تأتي في الترتيب الثاني من الأهمية بعد واجب الدفاع الوطني . ولكن الشعب يريد ضمانة الى ان هـذه الحقوق ستؤمن وتصان وتحترم . فمتى اطمأن لذلك فانه يرضى بتحقيقها على مراحل ، بحسب ظروف البلاد وحاجاتها الدفاعية .

لذلك وجب ان يعترف بهذه الحقيقة في صلب دستور الدولة . وان يذكر في هذا الدستور صراحة ان تأمين هـذه الحقوق من اول واجبات الدولة وأقدسها . حـــتى لا تستطيع اية حكومة التهرب من واجبها تجـــاه حقوق الشعب بدون خرق الدستور . فاذا اعترف بالحقوق الشعبية في الدستور على هذا الشكل ، وقام جهاز حكومي بينه وبين الشعب ثقة متبادلة ، تحققت اولى الخطوات في سبيل الحصول على هذه الحقوق .

٤ ـ كيف يتوصل الشعب الى حقوقه

هنـــالك اسباب كثيرة تدعو الى ايصال الشعب العربي الى حقوقه هذه ، واتفاق جميـــع العناصر الوطنية عليها . واولها ان البلاد العربية في هذه الآونة تمر في مرحلة حرجة محفوفة بالأخطار . ولا يمكنها ان تجتازهـا إلا بتعبئة جميع القوى الشعبية والمادية . وقوى الشعب لا يمكن تعبئتها الا اذا اطمأن الشعب الى حقوقه ، واستمد من هذه الحقوق قوة وكرامة .

ثم ان البلاد العربية لا تعيش في عزلة عن العالم ، بل هى جزء منه . ولا تستطيع بحكم موقعها الجغرافي ، وبحكم تاريخهـــا وواقعها ، إلا ان تتأثر بكل ما يجري فيه ؛ وان تساير الركب العالمي وتمشي معه . والعالم كله سائر في هذا الطريق. فلا نستطيع ان نتخلف عن الركب . شئنا او ابينا . فمن العبث اذن محاولة التشبث بشيء زائل .

واخيراً ، فأن حقوق الشعب قسم من حركة تاريخية لا بد ان تأخذ مجراها وتحقق كل ما في طياتها .ان منطق التاريخ يشير الى تحقيقها اشارة قوية واضحة . فان لم تتحقق عن طريق القومية العربية ، فان عرقلتها لا تميتها ، بل قـــد تؤدي الى انحرافات خطرة . فلماذا لا نتجنب هذا الانحراف ، بتسهيل هذه الحركة ومساعدتها على تحقيق نفسها ؟ .

واجبات الشعب

أن تأخير الحديث عن واجبات الشعب الى ما بعد الفراغ من الحديث عن حقوقه ، لا يعني أن حقوق الشعب اهم من واجباته. فأن معرفة المرء واجبه وقيامه به تأتي – اخلاقياً – قبل معرفته حقه ومطالبته به . بل ان الحق نفسه يبقى لفظاً مجرداً ، عارياً عن الحياة ، بعيداً عن الواقع ، الى ان يتفاعل مع الواجب ، فيمتلىء حياة وتصبح له امكانية التحقيق . مع ذلك فأن تأخير الحديث عن الواجب امر مقصود . فأن الشعب قد تعود ان يسمع كلمة الواجب ، لا كلمة الحق ، حتى انطبع في ذهنه ان الحق والواجب مقسمان تقسيماً طبقياً : طبقة لها الحقوق ، واخرى عليها الواجبات . فاذا وقعت البلاد في ازمة قيل للشعب ان واجبه ان يضحي بالدم والمال ، وان يقبل بما يفرضه الجهاد من ألم وشظف . وإذا انقشعت الازمة وجد الشعب نفسه تعيساً فقيراً مقيداً كما كان . والتفت حوله فاذا الذين تكلموا عن الواجب وطالبوا بالتضحيات قد ازدادوا ثروة وجاهاً وسلطاناً . فليس غريباً ان ينظر الى المتحدثين عن الواجب وحده نظر المستريب .

إلا أن الحق والواجب متلازمان . فالواجب يعطي الحق حياة ، ويرفعه عن مستوى الانانية الزائلة ، الى مستوى المثالية الخالدة . والحق يعطي الواجب غاية وهدفاً . والحق والواجب ينطبقان على الجميع دون تمييز . فصاحب الحق هو صاحب الواجب. ومن ليس عليه واجب ليس له حق . وهما يسيران بخطين متوازيين

في مختلف طبقات الامة : كل حق امامه واجب ، وكل واجب امـــامه حق . ولا يسيران بخطين متعاكسين : الحقوق لجماعة والواجبات لاخرى .

وأول واجبات الشعب ان يعرف هذه الامور ويعتقد بهـا . اول واجباته ان يعرف ان له حقوقاً ، وان يؤمن بهذه الحقوق، ويعمل من أجل تحقيقها بعزم وصلابـــة . الحق لا يحق نفسه . ولكنه ينتظر أناساً يرونه ويؤمنون به ، ويعتقـــدون ان من واجبهم احقاقه. فاذا ما تفاعلت رؤية الحق بمعرفة الواجب تجاهه، خلقت في النفس حمـاسة وايماناً واندفاعاً لن تستطيع الأغراض والامتيازات ان تقف في وجهها ، فلا تلبث ان تخرّ امامهـــا . والذي يعرف واجبـــه تجاه حقه يستحق ذلك الحق . والذي لا يعرف واجبه تجاه حقه ، فلا يعمل من اجل حقه ، او ينتظر ان يعمل له غيره ، وان يأتي هو فيجده جاهزاً ويستفيد منه — رجل كهذا أناني غـــير جدير بالحق . وأهون منه الذي لم يعرف لنفسه حقاً .

وفي تاريخنا نحن مواقف رائعـــة امام الحق . وقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرة وقال : « من رأى منكم فيّ اعوجاجاً فليقومه » فأجابه اعرابي : « لو رأينـــا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا » . فما كان من عمر العظيم الا ان قال : « الحمد لله الذي أوجد في هـذه الامة من يقوّم اعوجاج عمر بسيفه » . لم تكن ضمانة حق العرب زمن عمر معرفـــة عمر لحقهم فحسب ، بل استعدادهم للتضحية في سبيل هذا الحق . وتلك هي الضمانة العظمى

للحق في كل زمان .

ومن واجب الشعب بعد ذلك ان يحب وطنه حباً حقيقياً ، وان يكون مستعداً لان يبذل في سبيله كل ما يستطيع من جهد ومال ودم .

ومن واجب كل فرد من افراد الشعب ان يجعل نفسه جديراً بوطنه وبأمته . بان ينقي نفسه ، ويضع لحياته المبادىء الاخلاقية التي تجعل منه انساناً طيباً .

فاذا عرفنا واجبنا امام حقنا ، وامام وطننا ، وامام المثل الاخلاقية ، اصبحنا امة . وامكننا تذليل كل عقبة . واجتياز كل خطر .

التربية القومية

•

اظهرت التجارب التي قام بها عدد من الدول الحديثة ، ان اي نظام سياسي يهدف الى تحقيق اصلاح سريع شامل ، وانشاء حياة جديدة ، يجب ان يقترن بنظام تربوي يسنده وينشر مبادئه وعقائده بين الشعب . مثل هذا النظام التربوي لا يمكن تطبيقه في مؤسسة واحدة ، كالمدرسة مثلا ، ويجب ان يطبق في مختلف مؤسسات الدولة . بل يجب ان يسخر جهاز الدولة كله لتطبيقه . فيكون الجيش ، ومنظمات الشباب ، والحزب ، والجمعية ، والنادي ، والنقابة ، والعائلة ، والصحافة ، والاذاعة ، وسواها ، كلها ميادين لتطبيق هذا النظام ونشر المبادىء التي يدعو اليها . هذا النظام التربوي لا يكتفي بتعليم النظريات ، بل يعتني بتطبيقها عمليا في الحياة . ولا يتوجه الى العقل وحده ، بل يهتم بالجسم ايضاً . ويعالج جميع نقاط الضعف في الامة ، ويزيد في قوتها ومناعتها . وقد استطاعت كل من روسيا والمانيا وايطاليا ، ومن قبلها اليابان ، بل استطاع اليهود انفسهم ، بواسطة انظمتهم التربوية ، قلب الحياة ، وانشاء جيل جديد يختلف في كل شيء عما سبقه من الاجيال .

ونحن في هـــذه اللحظة الحرجة من حياتنا نحتاج الى نظام تربوي شامل قوي كهذا ، هدفه اعداد جيل واع قوي نشيط ، قادر على حماية الوطن العربي واسترداد كرامته .

وواضح ان كلا من النظم التربوية التي وضعتها الامم الـتي ذكرناها ، يستمد من فلسفة سياسية واجتماعيـــة شاملة . فعلى مفكرينا في هذه اللحظة ان يضعوا هذه الفلسفة القومية ، حتى توضع على اساسها برامج تفصيلية، لنشر هذه المبادىء بين الشعب.

التنظيم الاقتصادي

•

من المتفق عليه ان بلاد الهلال الخصيب بلاد غنية بمواردهـــا الطبيعية . ولكنا بالرغم من هذه الثروة ، نجد انتاجها قليلا . ونجد مستوى المعيشة بين سكانها ، وهم قليلو العدد بالنسبة لثروتها ، غاية في الانخفاض . فمن الواجب وضع برنامج شامل لاستغلال موارد الثروة . لانه بدون ذلك لن يستطيع الشعب العربي ايجاد جهاز دفاعي قوي ، ولا رفع مستوى المعيشة بين السكان ، ولا القيام بالخدمات الاجتماعية اللازمة لانهاض الشعب .

ولتنفيذ هذا البرنامج تنفيذاً فعالاً يجب توفير الامور التالية :

١ — جهاز اداري ثابت ، لديه الكفاءة اللازمة للقيام بتنفيذ البرنامج .

٢ — خبراء فنيين يشرفون على القسم الفني منه .

٣ — اموال تكفي لتنفيذه .

١ - الجهاز الاداري

يجب ان يفرد للمشاريـع الانشائية الكبرى جهـاز مركزي واحد ، يكون ثابتاً . فلا يتغير بتغير الحكومات . ويتكون من

اعضاء معروفين بكفايتهم ونزاهتهم وابتعادهم عن الامور الحزبية والسياسية . ويستمد هذا الجهاز ، او المجلس ، سلطته من تشريع خاص يسن لهذه الغاية . ويكون عليه وضع المشاريع الانشائية ، وترتيبها من حيث الاهمية ، وتنفيذها . والمزية التي لمثل هذا الجهاز هي انه يستطيع مراقبة الاعمال الانشائية على مدة طويلة ، وتنفيذ خطة موحدة نحوها . مع انه لو ترك الامر للحكومات المعرضة للتغيير ، فقد تأتي كل حكومة بمشروع جديد . او قد تتغير الحكومة قبل ان تتمكن من تحقيق اي مشروع انشائي .

٢ ـ الخبراء الفنيون

لم تتكون في بلادنا حتى الآن طبقة من الخبراء الفنيين الذين نحتاج اليهم لاستغلال موارد الثروة وترقية مستوى البلاد . ولن نستطيع تنفيذ اي مشروع انشائي ضخم بدون هؤلاء الخبراء . فعلينا ان نعمل لتكوين هذه الطبقة وايجادها من ابنائنا . وريثما يتم لنا هذا ، يتعين علينا ان نستعين بخبراء فنيين من الخارج نستخدمهم في تنفيذ مشروعاتنا الانشائية الكبرى . ولكي نتأكد من ان هؤلاء الخبراء لن يكونوا اداة لأي غرض سياسي ، نستطيع ان نختارهم من امم متعددة ، لا امة واحدة . وان نفضل الذين ينتمون الى امم غير مستعمرة .

٣ ـ الاموال

لا شك ان المشاريع الانشائية تحتاج الى اموال كثيرة . ويمكننا الحصول على هذه الاموال من المصادر التالية :

١ – زيادة الضرائب : بهذه الطريقة يمكن زيادة الدخل الحكومي ، وتخصيص قسم اوفر من مالية الحكومة للمشاريع الانشائية . ولن تكون هذه الزيادة مجدية الا اذا انشيء نظام مالي حديث تكون الضرائب فيه تصاعدية . وهنالك بشكل خاص ضريبتان يمكن ان تزيدا دخل الدولة دون ان تؤثرا في اقتصاديات البلاد ، او في المستوى المعيشي للسكان . وهما ضريبتا الدخل والارث . فاما الاولى فانها موجودة في اكثر البلاد العربية . ولكن ما يجبى منها في الواقع اقل بكثير مما يمكن جبايته . كما ان الضريبة المفروضة قليلة بالنسبة للدخل الذي تقطع منه . فبتحسين الجباية ، وزيادة النسب ، يمكن زيادة دخل الدولة من هذه الضريبة زيادة كبيرة . واما ضريبة الارث فلا وجود لها حتى الآن . مع انها تطبق في جميع البلدان المتقدمة . ولا شك في ان ايجاد ضريبة إرث فعالة يزيد دخل الدولة ويساعد على ايجاد الاستقرار الاجتماعي. وهنالك ضرائب اخرى يمكن ان تزيد دخل الدولة ، وهذه يقررها اصحاب الاختصاص .

٢ – القروض الداخلية : على الحكومة ان تشجع التوفير الوطني في البلاد بمختلف الطرق . وان توجد الوسائل لتوجيه هذا التوفير نحو المشاريع الانشائية في البلاد . وخير وسيلة لذلك القروض الداخلية . ولتشجيع التوفير الداخلي ، يجب تحديد الاستيراد تحديداً قوياً ، ومنع استيراد الكماليات مدة طويلة.

ان وجود بنك حكومي مركزي ، ونقد وطني ، ووضع الجهاز الصرافي كله تحت اشراف الحكومة ، يسهل عملية التوفير

الوطني والقروض الداخلية كثيراً .

٣ ــ زيادة حصة الحكومة من الموارد التي يستغلها الاجانب . واهمها البترول . وتخصيص هذه الزيادة للمشاريع الانشائية .

٤ ــ القروض الخارجية : وهـذه القروض لا يلجأ اليها إلا باحتراس شديد . فلا تعقد الا للمشاريع المنتجة . حتى تتمكن هذه المشاريع من سدادها في المستقبل . ويجب التأكد من عدم وجود اي اغراض سياسية وراءها . فما لم يؤمن هذان الشرطان تكون القروض الاجنبية خطراً عل كيان البلاد .

وبالاضافة الى المشاريع الانشائية ، فأن البلاد إذا ما ارادت تحقيق اهدافها الاجتماعية كلها ، بحاجة الى توجيه اقتصادياتها نحو الامور التـــالية :

١ ــ ايجاد المزارع الصغير وتثبيت استقلاله .

٢ ــ ادخال جميع انواع الصناعات الممكنة الى البلاد .

٣ ــ ان تكون ثروة البلاد بيد اهلها ما امكن .

٤ ــ في حالة مساهمة رؤوس الاموال الاجنبية في استغلال موارد البلاد يجب مراعاة شرطين اساسيين :

أ ــ ان لا تقل نسبة الاموال الوطنيـة في اي مشروع عن ٥١ بالمئة ، من مجموع رأس المال .

ب ــ ان لا يسمح بدخول رؤوس الاموال الاجنبية إلا بعد التأكد من عدم وجود اغراض سياسية وراءها . ولما كانت هنالك امتيازات اجنبية سبق اعطاؤها فيجب تعديـل الاتفاقيات القديمة معها حتى تتلاءم مع هذين الشرطين .

البرامج الانشائية

•

أن المباديء المتقدم ذكرها ، في ميادين الدفاع والاقتصاد والتربية والتعليم والصحة والتأمين الاجتماعي وما اليها ، لا يجوز ان تبقى مباديء نظرية. بل يجب ان يبدأ العمل في تنفيذها حالاً. وهذا التنفيذ لا بد أن يجري على مراحل . ولذلك يجب ان تحدد الامور التي ستنفذ في كل مرحلة ، تحديداً دقيقاً مفصلاً ، وان تقدر المدة اللازمة لانجازها ، وان يعلن ذلك للشعب ، على شكل برنامج انشائي ينفذ في تلك المدة المعينة . ثم تعبأ قوى الشعب المادية والانسانية والمعنوية لانجاح البرنامج ، وتنفيذ كل بنوده، في المدة المضروبة له . فاذا تقرر مثلاً ان جميع هذه الامور يمكن انجازها في مدى خمسة عشر عاماً ، فحينئذ تقسم على ثلاث مراحل،ويوضع لها ثلاثة برامج ، لكل خمس سنوات برنامج . على التوالي . ويرتب ذلك بحيث يضمن انجازها كلها خلال المدة المعينة . ويجب حين تقدر تكاليف هذه المشاريع وتعرف ،تكييف نظام الضرائب لتأمين ايجاد الاموال اللازمة لها . واذا احوج الامر ، يجب الاخذ بنظام العمل الاجباري ، وتعبئة قوى العمل في هذا السبيل . وذلك بفرض العمل الاجباري في الاعمال الانشائية العامة ، على

كل فرد من افراد الامة ، لمدة معينة . كما يجري في الخدمة العسكرية الاجبارية .

ان هذا التحديد الدقيق المفصل ، في المادة وفي الوقت ، يطمن الشعب على هذه الامور وعلى تحقيقها . ويجعل الحكومة اكثر ارتباطاً بتنفيذها ، واوضح مسؤولية عنها . فلا تستطيع الا ان تصدق النية ، وان تعمل كل شيء ، وتبذل كل جهد ، لتنفيذ كل برنامج في موعده . ولا شك ان وجود حكومة صالحة رشيدة ، قادرة على تعبئة قوى الشعب كلها ، من شأنه ان يجعل نجاح هذه البرامج الانشائية أكيداً .

المقاومة

•

ستجد الدعوة الى الوحدة العربية والى التجديد مقاومة ، ظاهرة او خفية ، من جهتين : اليهود والانكليز .

اما اليهود ، فهم يطمعون فينا . ويخشون منا . ويريدون ان يبقى لهم مجال لتنفيذ الاقسام التالية من برنامجهم في بلادنا . ويهمهم ان لا تنشأ في جوارهم قوة عربية يمكن ان تسترد فلسطين ، او تكوّن خطراً على دولتهم ، او تحول دون تحقيق اطماعهم . ويخشون ان تتكوّن هذه القوة في ظلال الوحدة والتجديد . فعلينا ان ننتبه الى دسائسهم ، والى ما لهم بيننا من « رتل خامس » .

واما الانكليز ، فهم الذين خلقوا لنا التجزئة . وهم مرتاحون اليها ، والى ان نتلهى عن الوحدة الصحيحة بهذه «الجامعة» الضعيفة التي لا تغني فتيلاً . فالتجزئة والتأخر ، وما تخلق التجزئة من تنافس ، أدنى لقضاء مصالحهم . وأضمن لتحقيق اغراضهم . على انهم قوم عمليون . وفي سياستهم مرونة . وطريقتهم ان يسيروا مع الامر الواقع . فاذا تمت لنا وحدتنا ، فسيعترفون بها . ويتعاملون معها . والشواهد على ذلك كثيرة . من أظهرها موقفهم من الترك والحركة الكمالية .

• • •

سيحاول الذين رمونا بالكارثة ، ان يعوقوا سيرنا نحو الوحدة والتجديد . وان يعززوا النظم القائمة ، من اقليمية وتجزئة ، ومن حكم غير صالح . وان يصرفونا عن التفكير في جنايتهم علينا ، بما يلوّحون لنا من القروض ومشاريع الانعاش . فعلينـــا ان لا نضل طريقنا خلال ذلك ، وان تظـــل اعيننا على الهدف ، وخطواتنا في اتجاهه . لا يلهينا عنه تغرير ، ولا تحولنا عنه مغالطة او تضليل ، حتى نصل اليه .

خاتمة

●

لكل هدف كبير ، وكل تطور في سبيله ، ادوار ثلاثة : دور الأماني . حين يكون الهدف أمنية وحلماً . ودور الفكر . حين تصبح الأمنيـــة فكرة وعقيدة . وحين يعمل الفكر لاجلائها وتمكينها ، والدعوة الى تحقيقها ، والكشف عن وسائلها ، وعن السبل الموصلة اليها . ودور العمل . حـــين ينطلق العاملون الى تحقيق الهدف ، واخراج الفكرة الى حيّز الفعل .

وقد اجتازت اهدافنا الكبرى التي تحدثنا عنها آنفـــاً ، من وحدة وتجديد ، الدور الاول . وهذه الرسالة بعض ما يدوّن عمل الفكر في الدور الثاني . ونحن الآن على عتبـــة الدور الثالث ، دور العمل والتنفيذ .

والعرب اليوم ، بعـــد كارثة فلسطين ، يقفون على مفترق الطريق . ولا مناص لهم بعد هذه الهزة العنيفة من تطور كبير . ويخشى كثيراً في مثل الحالة التي هم عليها ، وان ينحرف هذا التطور في سيره عن الاتجاه القويم الى وجهة غير صالحة ، ويفلت الزمام .

ان من واجب كل مفكر وكل عامل ان يعمل لاتقـــاء الانحراف الخطر ، ومنع افلات الزمام . وان يساعد في توجيـه

هذا التطور نحو الوجهة الصحيحة .

واذا كان في العرب حيوية وقابلية ، ورجال أولو نضوج وحكمة وعزيمـــة ، فليس امامهم سوى العمل السريع دون تردد ، وقبل فوات الوقت .

فان لم يفعلوا ، وظلوا غارقين في الاماني والاحلام ، فتلك علامة سيئة ، قـــد تشير الى انهم وصلوا الى درجة من الخمود والانحلال لا تؤهلهم لان يسيروا مع الزمان . وهذا مالانعتقده . اننا نؤمن ايماناً راسخاً بالامة العربية وقابليتها العظيمة .

• • •

لقد هزتنا الكارثة هزة عنيفة . واحدثت فينا جرحاً عميقا . وفتحت علينا باب خطر شديد . ولئن ايقظتنا الهزة ، وجمعتنا ، ودفعتنا الى حياة جديدة نأخذ فيها باسباب النهوض والقوة ، فان الجرح يلتئم ، والخطر ينكشف ، وفلسطين تعود .

وقد تحمد المصائب .

والا ، فيا لهول المصير ! .

بيروت ، آذار ، ١٩٤٩

فهرس

مقدمة	٣
اجمال	٥
معركة فلسطين في دورها الاول	٩
بين الاعداد والارتجال	٩
بين الحرب والثورة	١٢
الشرارة الاولى	١٤
بين التماسك والتفكك ، والنظام والفوضى	١٤
عدم الشمول	١٦
السلاح	١٧
النقص العسكري	١٧
ضعف الدفاع في المدن الكبرى	١٨
اللجنة العسكرية وجيش الانقاذ	١٨
الهدف	١٩
انصاف	٢٠
المعركة في الدور الثاني	٢٢
الجيوش العربية	٢٢
التفكك والتخاذل	٢٣
الارتجال	٢٤
عدم الجد في الحرب	٢٤

في الميدان السياسي	٢٦
الهدنة	٢٧
المفاوضات الفردية	٢٩
الاسباب الرئيسية	٣٠
عدم الوحدة	٣٠
الحكومات	٣١
الشعب	٣٣
الخطر اليهودي	٣٤
العبرة	٣٨
سباق	٤١
نحن اقوى	٤٢
هذا الشقاق	٤٣
الوحدة العربية	٤٤
الجامعة	٤٨
وجوه الوحدة	٤٩
الهلال الخصيب	٥١
مدى الوحدة	٥٣
لبنان	٥٦
الحواجز	٥٦
التجديد	٥٩
للتجديد في الحكم	٥٩
السياسة الخارجية	٦١

المحالفات	٦٢
الشعب	٦٤
حقوق الشعب وواجباته	٦٤
اصول حقوق الشعب	٦٤
ما هي حقوق الشعب	٧٠
الحرية	٧٠
المساواة	٧٢
العمل	٧٢
التأمين الاجتماعي	٧٢
الخدمات الاجتماعية	٧٣
حقوق المرأة	٧٤
هل يجوز تأجيل المطالبة بهذه الحقوق	٧٤
كيف يتوصل الشعب الى حقوقه	٧٧
واجبات الشعب	٧٨
التربية القومية	٨١
التنظيم الاقتصادي	٨٣
الجهاز الاداري	٨٣
الخبراء الفنيون	٨٤
الاموال	٨٤
البرامج الانشائية	٨٧
المقاومة	٨٩
خاتمة	٩١

عبرة فلسطين

انتهى طبع هذا الكتاب على مطابع

دار الكشاف
للنشر والطباعة والتوزيع
بيروت - لبنان

في اليوم التاسع من نيسان عام ١٩٤٩

الموزعون

دار الكشاف

للنشر والطباعة والتوزيع

بيروت ـ لبنان

في مصر : فرع دار الكشاف ـ ٣ شارع فاروق بالقاهرة

في العراق : فرع دار الكشاف ـ خان الشهربانلي ببغداد

الثمن { نصف ليرة لبنانية سورية
٥٠ ملا ، او مليماً ، او فلساً

مطبعة الكشاف بيروت